

أدب رحلات

الكتاب الأحمر

رحلاتى فى خريف الحلم السوفييتى

يوسف القعيد



دار سعاد الصباح

الكتاب الأحمر

رحلاتى فى خريف الحلم السوفييتى

٩٢ / ٨٧٣٧

I.S. B. N

977 - 07 - 220- x

الطبعـــــة الأولـــى ١٩٩٢

دار سعاد الصباح

ص . ب : ٢٧٢٨٠

الصـــفاة ٣١٣٣ – الكـــويت

ص . ب : ١٣ المقطم – القاهرة

☎ ٣٤٩٧٧٧٩
٣٤٩١٧٢٧

الاشراف الفنى : حلمى التونى

خيرها فى غيرها

●● لا أحب لهذا الكتاب أن يتحول إلى سرادق من الورق ، أتلقى فيه العزاء، فى حلمنا جميعا ، الذى تجسد على الأرض فعلا ، فى وطن الاشتراكية الأول ، الذى تحول - بعد ذلك - إلى وطن الاشتراكية الأخير . لأننى أفصل بين الاشتراكية كحلم بشرى ، وبين التطبيق الذى جرى لها هناك . ولأننى أومن بأنه مادام على أرض ظلم اجتماعى . وان هناك شمالا مترفا وجنوبيا جائعا . ومادام فى داخل حدود الوطن الواحد من يموتون من الجوع ومن يموتون من التخمة .ما دام الحال هكذا ، لابد أن يبقى حلم الاشتراكية . معلقا فى ضمير البشرية وأحد أهداف العمل الانسانى .

حتى هذه الديمقراطية الشكلية ، الديمقراطية المتمثلة فى كل هذا الحبر الذى نلوث به صحف زماننا . والتى جاءت فى الأصل كشرط من شروط معونات القمح القادمة إلينا من الغرب . أقول إن هذه الديمقراطية ستبقى لا قيمة لها مادامت لا تملك سوى تقديم حلول سحرية لحرية تذكرة الانتخاب وتنسى أو تتناسى حرية لقمة الخبز . علاوة على أن ديمقراطية البطون الخاوية . والأميات : أبجدية وثقافية وسياسية . تبقى دائما ديمقراطية القطيع .

ما علينا ، أعود الى موضوعى ، وأكتب ، ان بلاد الحلم السوفييتى ، كانت بالنسبة لى بلادين ، بلاد قرأت عنها ، تحت مظلة الطموح الناصرى الذى لامس سقف الكون ، وفى زمن التراجــع الســاداتى الذى أعادنا إلى ما قبل المربــع رقم واحــد .

بدأت القراءة فى حقول الأدب ، كانت هذه البلاد بالنسبة لى ، ذات حضارة عظيمة ، فهى البلاد التى عاش فيها وكتب عنها ولها : دستفويسكى أهم كاتب فى تاريخ البشرية ، كتب عن أعماق النفس الإنسانية ، وتولستوى الذى تعلمنا منه ، كيف يكتب النص الروائى الذى لا يعرف أبدا ، أين تنتهى الملحمة ، وأين يبدأ النص الروائى ، وتشيكوف ، العبقرى الذى حول نثر الحياة اليومية إلى قصائد من الشعر القصصى ، والذى جعل سأم وملل ورتابة الواقع اليومى خيالا قصصيا نادراً ، والذى جعلنا نحدق طويلا فى البؤس الإنسانى ، دون أن يتسلل إلينا اليأس أبدا .

بعد هذا الزخم الثقافى ، كنت أحاول أن أرسم تضاريس الواقع اليومى من خلال متابعاتى وقراءاتى ، كنت أتساءل هل يمكن أن تحدث المعجزة فى زمن قال للمعجزات وداعاً ؟ هل يمكن أن تتساوى الرءوس ؟ أن يحصل كل إنسان على عائد عمله بدرجة من التساوى الكامل .

إن العدل الاجتماعى بالنســبة لواحــد مثلى ، خرج من واقع إجتماعى فقير ، يصبح قضية العمر المحورية ، ولأن كل التجارب كانت تنتهى إلى الفشل ، كنت أقول لنفسى : إن ما سيحدث لنا هو ما جرى لمن كانوا قبلنا ، نحلم ، وعندما نحاول الخروج من مناطق الأحــلام الضــبابيــة إلى أرض الواقع ، تحــدث الكارثة .

كنت فى الضفة الأخرى لليأس . كنت قد آمنت بأنه في أعماق كل تجربة إنسانية بذره فشلها وفنائها والقضاء عليها فى النهاية. وأنه لا أمل على الاطلاق، بل لقد حدثت لى حالة من انعدام القدرة على الحلم . مع ان الدنيا بدون أحلام تصبح هى الجحيم على الأرض .

إلى أن جاءتنى أول دعوة للسفر الى هناك « أرض الأحلام » ، كانت المستعربة السوفييتية الدكتوره فاليريا كيربتشنكو قد ترجمت ثلاث روايات لى هى : أخبار عزبة المنيسى ، يحدث فى مصر الآن . والحرب في بر مصر . ونشرت كل رواية بمفردها . وبعد أن نفدت طبعاتها الأولى رأت دار النشر إصدار الروايات الثلاث فى مجلد واحد .

وبمناسبة صدور هذا المجلد . قرروا دعوة المؤلف - الذى هوأنا - لزيارة بلادهم . وقد كانت المرة الأولى التى يترجم لى فيها حرف من اللغة العربية إلى لغة أخرى من لغات العالم ، عندما شاهدت «أخبار عزبة المنيسى» بالرو سية . لم أفهم حرفا واحداً من المكتوب على الغلاف . ولكن الرسم أكد لى أن ثمة صلة ما بينى وبين هذا الكتاب . بعد ذلك ترجمت أعمالى إلى لغات أخرى كثيرة . شرقية وغربية، ولكن تبقى الترجمة إلى الروسية هى الترجمة البكر . الترجمة الأولى . الترجمة التى سبقت أى ترجمة أخرى .

كان ذلك فى سنة ١٩٨٥ . حيث كانت علاقات القاهرة وموسكو تخرج من نفق السادات المظلم . وكان العرض الأمريكى على أرض بلادى التى تحولت إلى مسرح له ، فى لحظة الذروة بالنسبة له . كانت العلاقات المصرية السوفييتية تمر بمرحلة رمادية . لا هى فى ازدهار مصر عبد الناصر . ولا فى قطيعة مصر التى حكمها السادات .

كانت علاقات لا طعم لها . لدرجة إننى عندما وصلت إلىّ الدعوة ، وبدأت إجراءات السفر اتصلت بمطار القاهرة الدولى ، لكى اسأل : هل لابد من تصريح ما عند السفر إلى موسكو ؟ ورد علىّ من سألته . بسؤال بدلا من أن يجيب علىّ : من أين أتيت بهذا الكلام ؟!

فى الطائرة . كنت أرتجف من شدة الانفعال . فأنا فى الطريق إلى بلاد ، من المفترض فيها ، أن فقر الفقير لا يعيره . والمهم بالنسبة لقيمة الإنسان هو عمله وكده . وبعد أن دخلت الطائرة الأجواء السوفييتية . قلت لنفسى : إننى أحلق فوق بيوت يحلو لها فى النهار ان تشم رائحة عرقها . وفى الليالى تستريح من التعب . تعب العمل . لكى تبدأ فى اليوم التالى رحلة العمل من جديد .

الرحلة الأولى . تحولت إلى أربع رحلات . على مدى ست سنوات وقد اكتشفت ، مع الآسف الشديد ، أننى قد سافرت إلى حلمى وهو فى خريفه . حيث أوراق أشجاره قد بدأت فى التساقط . وأيضا فإن علامات النهاية كانت قد بدأت تعبر عن نفسها .

لدى يقين تعلمته من الطبيعة فى قريتى أن لكل أول آخر ، ولكل بداية نهاية . وأنه حتى التجارب الكبرى فى عمر الإنسان تمر بما يجرى للإنسان فى حياته من تبدل وتطور . طفولة وصبا وشباب ونضج . ثم يأتى الذبول الذى يكون مقدمة التلاشى .

نظام سرمدى لا يملك أحد دفعه ولا تغييره . ربما تطول رحلة على حساب الأخرى . ولكن لا مفر من حتمية هذا النظام الابدى الصارم .

عندما عدت بعد أن أنفض المولد وتهدم المعبد على من فيه . وجلست أعيد النظر فى الأثر الذى فعلته بى هذه الرحلات . وعندما جلست لكى اقرأ ما كتبته عن كل رحلة فى حينها . ذهلت . لأنه فى هذه الرحلات الأربع . كتبت عن

تفاصيل صغيرة . تصلح كلها ان تصبح مدخلا لرواق النهاية التى جرت فى أرض الواقع بعد هذا . فإن كنا نعيش الآن : ساعة حلم موسكو الجميل الخامسة والعشرين . فقد عاصرت مقدمات النهاية . ورصدت بعينى بعض ما كان يجرى هناك .

لا أحب أن ارتدى مسوح من يقدرون على قراءة الغيب . واقول إننى تنبأت بهذا الأمر أو ذاك . رغم أن هذه التنبؤات المأساوية موجودة . ولكنى فقط كنت أتابع ما يجرى . والقادم دائما يخرج من رحم الحاصل .

قبل هذه الزيارات . كنت أحلم فى بعض الأحيان . بأن يتم بعض التلقيح بين النظامين . أن تأخذ الاشتراكية من التجربة الأخرى بعض الحريات السياسية على ألا يكون ذلك بديلا . أى مجرد استكمال . أى مع الابقاء التام على المنجزات الاشتراكية .

وفى الوقت نفسه يتجه الغرب الرأسمالى إلى بعض الاجراءات ذات الطابع الاجتماعى . أى دون أن يتخلى عن خياره الديمقراطى، وكنت اتصور يوتوبيا عربية . تأخذ من موسكو الحل الاجتماعى ومن واشنطن الحل الديمقراطى . وتخرج منهما معا بنوع من الحل الذى لن يحدث على الأرض . وربما لن نجده حتى فى الآخرة .

هذه الرحلات الأربع أكدت أن ضرورات التغيير والتطوير داخل المعسكر الاشتراكى كان لابد منها . ولا مفر من اللجوء إليها، ولكن المشكلة المأساوية جاءت عندما تم هذا التطوير والتغيير بتقليد ما يجرى فى الغرب . صحيح أن النمط الرأسمالى كان يبدو فى ذلك الوقت مزدهرا ومستقرا ومتقدما . ومشاكله – إن وجدت – فهى قضايا داخلية . ولكن كل هذا لا يبرر ذبح التجربة الاشتراكية ومسخها حتى تصبح صورة مشوهة من تجربة الغرب .

كان ما يجرى فى موسكو إذن ببساطة أن بديهيات الماركسية اللينينية تتعرض لخطر حقيقى . والأمر لم يكن سوى تحول جوهرى على النهج الاشتراكى . والتطوير الذى تم لم يكن من داخل التجربة ولكن على أساس الأخذ من النقيض الآخر .

فى رحلتى الأولى - سنة ١٩٨٥ - قالوا لى إننى جئت والبلاد تمر بأيام انتقالية . وان هنا توجها نحو الديمقراطية ولكن فى اطار الحزب وايديولوجيته . كان جورباتشوف ، الرجل القادم من المجهول ، يعد بلاده فى ذلك الوقت بأنها ستتجاوز الولايات المتحدة الامريكية فى الناحية الاقتصادية . وحتى يستند هذا الوهم الحلمى إلى حقائق الواقع . قاموا لى فى موسكو يومها : إن العجز فى الميزانية الأمريكية هذا العام قدرة ١٣ر٢ مليار دولار .

كنت مسافرا من مصر المثقلة بجراح الانفتاح الاقتصادى . وعندما عبرت هناك عن خشيتى من آثار الانفتاح السلبية ونحن أدرى بها من مصر . قالوا إن الانفتاح على الغرب ليس وارداً بالنسبة لنا ، لا الآن ولا مستقبلا .

هذا ما قالوه .

ولكن ما كان يجرى على أرض الواقع كان أمراً آخر تماما . كان الوطن السوفييتى يستدير على نفسه بزاوية ١٨٠ درجة مرة واحدة .

فى الزيارة الثانية . ومنذ اللحظة الأولى . كانت تهاجم حواس الإنسان كل علامات التغيير . تغيير يتحدى حتى قدرة الإنسان على الاستيعاب . وسواء سمعت أو رأيت أو أحسست فإن كل ما يسرى حولك يقول لك . إن الأمور تندفع فى اتجاه غريب . وانه لا توجد قوة على الأرض قادرة على وقف الاندفاع . وان البلاد تركض نحو الكارثة .

وهكذا حجز السوفييت لأنفسهم السنوات الأولى من قرننا العشرين . وكذلك السنوات الأخيرة منه . وإن كان الفارق انهم فى الأولى كانوا يتقدمون إلى الأمام، ولكنهم فى السنوات الأخيرة كانوا يتقهقرون إلى الخلف حتى الحائط الأخير الذى لم يعد له وجود . وذلك كمقدمة لنهايات القرن وفاتحة لبدايات القرن القادم .

فهل كان ذلك كله مصادفه ؟!

بقى أن أقول . إن كل ما كتبته عن التجربة . إنما هو من قبيل الكلام الذى يقال من داخل البيت . وليس من أرض مواجهة له . أيضا لابد من إيضاح آخر . حول حكاية الصهيونية واسرائيل واليهود السوفييت . وكذلك أوضاع الكتاب السوفييت فى مواجهة هذه الدراما العنيفة . فى هذا الكتاب نوع من الإلحاح غير العادى حول هذه القضية . يكاد يصل فى بعض الأحيان الى التكرار الذى أكرهه وأرفضه .

وعلى الرغم من أننى أعتقد أن الأمر ليس فى حاجة إلى إيضاح ، إلا اننى أقول وأحكى عن تجربة جيل عرف جيدا اصدقاءه وعرف أيضا ، بنفس القدر ، اعداءه . لقد جندت فى صفوف القوات المسلحة المصرية من ديسمبر ١٩٦٥ وحتى نوفمبر ١٩٧٤ تسع سنوات كاملة عاصرت خلالها هزيمة يونيو ويقظة أكتوبر .

إحساسى بهذا العدو ليس نابعا من موقف نظرى أو معاناة ذهنية ، ولكن من خلال تجربة حياة مررت بها فعلا واستمرت تسع سنوات . تقع فى أخصب مراحل العمر . ومهما تغيرت نظرة الآخرين إلى العدو الاسرائيلى . فستبقى لى نظرتى الخاصة . وحتى إن كنت آخر المصريين والعرب بمن فيهم الفلسطينيون

الذين يتعاملون مع العدو الصهيوني على هذا الأساس . فسيكون أفضل لى ألف مرة أن أظل آخر الذين يرفضـــون التعامـل مــع العـــدو بدلا من الانضمام إلى قطيع الذين يمــدون أيديهـم بالسلام . لأن الطـرف الآخر طالمـــا أنه لا يــزال عـدوا . فاليد الممدودة تصبح مستسلمة ، وقد اثبت العدو الإسرائيلي في ظل سلامهم معه أنه أكثر عداء لهم من أزمنة حروبهم معه . وهذا ليس معناه أنني أعاني من الجمود أو التحجر أو انعدام القدرة على التطور . ولكني أفرق دائما بين الثوابت والمتغيرات .

تبقى حكاية الادباء السوفييت وتحولهم . وهذه المسألة تشغلني فعلا منذ ان جرت عندنا – في مصر – ميليودراما التحول العنيف لأدبائنا في السنوات الفاصلة بين ثورة عبد الناصر العظيم وارتداد السادات عنها . هذه من الامور التي تشغلني دائما .

لقد نشـــأت وتربيت وكتبت أولى كلمـــاتي في ظل واقـــع يقـــول إن الاديب الحقيقي هـــو ضمير عصره . وهـــو الاكثر قدرة على التقـــاط جـــوهر الواقع . وقـــبل كل هـــذا وبعـــده تعلمت أن الأديب والكــــاتب والمفـــكر : موقف . ولذلك انظر إلى التغييرات والتحولات التي تصيب الادباء . بإعتبارهـــا أكثر مأساوية وكارثية . عند التعبير عن التحولات التي تصيب الواقع فيمــا بعــد .

منذ سنواتي الأولى ، وأنا أتابع هذه التحولات بقدر هائل من الفزع . وأرى أنها تعبر عن عطب يكمن في روح الكاتب . وتشي بقصور في خياله . وتقول بصوت عال . إن الانتهازية تقف على طرف سن قلم هذا الكاتب . وإنه يكتب ما يكتبه على جلد الحرباء وليس على الورق الذي نتعامل معه .

لا أحب أن يفهم من كلامى هذا أننى ضد التغيير الطبيعى النابع من داخل الانسان والخارج من رحم اقتناعه . أنا فقط ضد استبدال الايمانات الأساسية . مثل استبدال الاحذية .

آخر هذه الإيضاحات التى لابد منها . اننى لم أجمع هذه الرسائل من موسكو فى كتاب لكى تكون دليل يأس . بالعكس من هذا تماما . لقد جمعتها بين دفتى هذا الكتاب . لسبب آخر . وهو أننى أؤمن ان بعد غد ربما يكون أفضل من اليوم . لأن ظلام الغد يجب ألا يجعلنا نصادر الزمن الآتى . لحكمة بسيطة تقول إنه وراء الغد يوم آخر اسمه : بعد الغد . وهناك أيضا : بعد بعد الغد .

يوسف القعيد

مدينة نصر – الضهرية

بحيرة – ١٩٩٢

١٩٨٥

المقـــدمات

لابد من موسكو وإن طال السفر

★ السادس من اكتوبر - من كل عام - عيد من نوع خاص فى موسكو .
ا اليوم يبدأ نزول الثلج فيها ، وهذه الأيام تأتى لياليها بيضاء ، يذهب
ولكن يبقى اللون الأبيض فى سماء ذلك الليل العجيب ، أما ورق الشجر ،
الخضرة مكانها للون غريب ، لون ذهبى تماما ..

وصلت إلى موسكو فى اليوم الأول من اكتوبر ، حيث الخريف الذهبى ،
ى البيضاء ، وانتظار الثلج النازل من السماء . والطائرة التى سافرت فيها
اهرة إلى موسكو مباشرة ، كانت تقل فى رحلتها من موسكو إلى القاهرة
وسية للفنون الشعبية . جاءت لكى تشارك فى مهرجان الاسماعيلية للفنون
ية . ثم لكى تقدم عروضها فى القاهرة والاسكندرية .

كنا ٢٤ راكبا على الطائرة ، كان معنا الدكتور أناتولى أجارشيف العائد
لاده بعد المشاركة فى الاحتفالات بذكرى مرور خمسة عشر عاما على رحيل
لناصر . واجارشيف الآن عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى
لمسئول عن كل ما يخص الشرق الأوسط . وله كتاب بالعربية عن عبد
صر وقد عاش فى مصر فترة طويلة كمراسل لجريدة البرافدا ويعرف العربية
حضر إلى المطار بسيارة خاصة حملته إلى سلم الطائرة مباشرة ، التى
تة لبعض الوقت .

قال لى اجارشيف إنه سعيد للغاية بلقاءات ثلاثة عقدها في يومه الأخير بمصر . وكان قد حضر إلى مصر بدعوة من اللجنة المصرية للتضامن مع شعوب آسيا وافريقيا . قال لى إنه ذهب إلى منزل جمال عبد الناصر وقدم إلى ابنه الأكبر الدكتور مهندس خالد جمال عبد الناصر نسخة مهداة من كتابه عن عبد الناصر . ثم التقى بعد ذلك بالدكتور يوسف والى الأمين العام للحزب الوطنى الديمقراطى ثم التقى بالدكتور حلمى الحديدى الأمين العام المساعد للحزب .

كان معنا فى الطائرة الدكتور أحمد النشار الأستاذ فى جامعة الأزهر الشريف وكان مسافرا بدعوة من جامعة موسكو لحضور مؤتمر علمي يعقد هناك، كانت معنا امرأة مصرية محجبة تماما . مسافرة إلى زوجها مبعوث الحكومة المصرية للدراسة العلمية فى جامعة لينينجراد . كان معنا أربعة طلاب مصريين مسافرين للدراسة فى جامعات الاتحاد السوفييتى وفتاة مصرية مسافرة للعلاج هناك .

الزمن الثلاثى

كان الوقت هو منتصف الليل عندما وصلت إلى موسكو .

وكانت موسكو مثل امرأة مفكوكة الشعر تنز منها المياه ، استحمت بمياه الأمطار ، وفى لحظة فاصلة بين ماء وماء ، كانت موسكو تشرب مطرها ، تتذوقه قطرة ، قطرة وكل ما فى المدينة كان يلمع ورائحة الماء تلتقى برائحة الليل .

كان فى استقبالى المستشرق والمستعرب أيجور يرماكوف مستشار اتحاد

الكتاب السوڤييت لشئون الأدباء العرب وقد استغرقت المسافة من المطار وحتى الفندق وهو يسألنى بدلا من أن أسأل أنا . وكل تساؤلاته تدور حول مصائر أصدقائه فى مصر خلال سنوات البعاد التى كانت . وقد نزلت فى فندق « أوكراايينا » وهو واحد من سبعة مبان متشابهة تماما . بناها ستالين فى زمن حكمه ، بناه للأسرى الألمان ، وهو مبنى فيه عناصر العمارة الروسية القديمة القائمة على فكرة الأبراج التى تنتهى بنجمة ، واحد المبانى هو جامعة موسكو والآخر فيه وزارة الخارجية والثالث الفندق والباقى عمارات سكنية . والأبراج السبعة ترمز إلى تلال موسكو السبعة .

وهذا الزمن فى الاتحاد السوفييتى هو زمن التكنوقراط والمتخصصين سواء من داخل الحزب أو من خارجه ، وهو أيضا زمن الاهتمام بالصناعة والزراعة والانسان العادى أولا وأخيرا .

وعند الحديث عن زمن جورباتشوف يثور سؤال :

– هل تعود صيغة الترويكا ؟!

والترويكا كلمة تعنى الثلاثية . وهم يقصدون هل يعود المثلث الذهبى لقيادة هذه البلاد ، والثلاثة هم : جورباتشوف السكرتير العام للحزب ، واندريه جورميكو رئيس مجلس السوڤييت الأعلى ، وريشكوف رئيس الوزراء الجديد، وعموما فإن هذا السؤال سيبقى معلقا على جبين المستقبل القادم ..

ولكنهم يتحدثون عن هذه المرحلة باعتبارها مرحلة انتقالية . ويؤكدون أن المكتب السياسى للحزب بدون أقطاب وبدون مراكز للقوى ، وأن اللجنة المركزية فيها تمثيل عادل لكل التيارات .

المؤتمر القادم للحزب

إن الحرس القديم يخلى مكانه بهدوء شديد لجيل جديد ، هـذا ما يجـرى الآن فى الاتحـاد السـوفـيـيتى . وعلى الرغم من أن هذه البـلاد قـد قـال عنهـا تشرشل من قبل إنها بلاد الأسرار والألغاز والسراديب التى لا يمكن الوصول إلى حقيقة الأمور فيها بسهولة ، إلا ان الأمور تتغير ، وإن كان هذا التغيير يحدث ببطء . ومن السهل معرفة ما يجرى فى كواليس هذه البلاد .

وعندما سافر جورباتشوف إلى باريس – خلال زيارته الأخيرة – وتم نقل وقائع زيارته الفرنسية بالقمر الصناعى وقت حدوثها . فرك الروس أعينهم من الدهشة وعدم التصديق . وعندما سافر معه وفد صحفى ضم كل المراسلين الأجانب فى موسكو من أجل تغطية الزيارة . قال الروس :

– إن زمنا جديدا يطل على الاتحاد السوفييتى فعلا .

والآن ، وعندما يقع حدث سياسى مهم ، فإن رأى الحزب فى الحدث وتعليقه عليه لا يصدر بعد أيام من وقوعه كما كان يحدث من قبل ، ولكن توجد متابعة هى أقرب إلى الملاحقة السريعة منها إلى المتابعة البطيئة التى كانت تتم من قبل .

وفى فبراير من العام القادم – ١٩٨٦ – من المفروض ان ينعقد المؤتمر السابع والعشرون للحزب الشيوعى السوفييتى ، وان كان المحللون لا يتوقعون ان يتم التغيير بصورة جذرية فى هذا المؤتمر . ويقولون أن التغيير الحاسم ربما تأجل إلى المؤتمر الثامن والعشرين للحزب والذى من المتوقع ان يعقد فى فبراير سنة ١٩٩١ حيث تكـون مـلامـح زمن جـورباتشـوف قـد اتضحت وتحـددت بصـورة أفضـل .

أما في هذا المؤتمر القريب ، فمن المتوقع إجراء بعض التعديلات في لائحة الحزب وكذلك وجود انفراجة ديمقراطية ولكن في إطار الحزب وأيديولوجيته . وكذلك حالة من الاهتمام بالانسان العادى وتحقيق مزيد من الانفتاح على الوطن العربى . والاتجاه شرقا ومحاولة اختراق المعسكر الغربى .

وعلى الرغم من أسوار الصمت الرهيب ، فقد استطعت أن أعرف من مصادر مطلعة في موسكو . أنه قد تم الانتهاء من اعداد برنامج جديد للحزب الشيوعى السوفييتى . وان هذا البرنامج مصمم لكى يقود البلاد حتى بداية القرن القادم . وان هذا البرنامج الذى سيقدم إلى المؤتمر القادم هو أول محاولة لتغيير برنامج الحزب منذ البرنامج الذى قدمه نيكيتاخروشوف إلى مؤتمر الحزب سنة ١٩٦١ . أى أنها المرة الأولى لتقديم برنامج للحزب منذ ٢٤ عاما مضت ، وان هذا البرنامج سيعبر بشكل دقيق عن أفكار جورباتشوف ، وهو برنامج أهم صفة فيه هى الواقعية الشديدة . وهو يعد المواطنين السوفييت ، بأن بلادهم ستتجاوز الولايات المتحدة الأمريكية فى الناحية الأقتصادية قريبا، ويركز بصورة أساسية على الاسكان ، الغذاء ، الملابس ، السلع الاستهلاكية . وإن كان يعتمد بصورة أساسية على مضاعفة الطاقة الانتاجية للبلاد .

وعن مسألة تجاوز الاقتصاد الأمريكى يقولون همسا :

– إن العجز المالى فى الميزانية الأمريكية هذا العام قدره : ٢,١٢ مليار دولار ، وان نسبة زيادة العجز فى هذا العام عن العام الماضى هى : ١٥٪ .

الانفتاح والسمعة السيئة

قال لى مستشرق سوفييتى :

– لا أحب ان تستخدم كلمة الانفتاح وانت تتحدث عن الواقع الاقتصادى والإجتماعى فى الاتحاد السوفييتى .

سـألته :

- هـل لأنهـا توحى بأن مـا قبلها كـان إنغلاقـا .

قال لى :

- قبل هذا وبعده ، إنها تعنى الانفتاح على الغرب وهذا غير وارد حتى مجرد التفكير فيه ، لا الآن ولا مستقبلا .

ومع هذا ، فقد ذهبت إلى مسرح البولشوى فى موسـكو ، فى مسـاء اليوم نفسه ، وشهدت حالة من السعادة . لأن هذا اليوم نزلت فيه إلى الأسـواق - للمرة الأولى - زجاجات مشروب البيبسى كولا ، ومن قبله نزلت إلى الأسواق الكوكاكولا . وفى البيوت الروسية الآن جهاز كاسيت صناعة روسيه وقد أعتبر الاتجاه إلى مثل هذه الصناعات مسألة مهمة وان كانت قد جاءت متأخرة . ويتحدثون كثيرا عن إمكان تصنيع فيديو بعد عامين من الان .

وهذا الاتجاه يحاول كبح جماح نوع من الغزل اليومى للأدوات الاستهلاكية القادمة من الغرب . وهذا الغزل - الذى يأخذ شكل الشبق فى بعض الأحيان - لا يأخذ شكل السباق . ولكنه يحاول تحقيق حلم الحياة السعيدة للمواطن العادى . خاصة بعد سيادة أيديولوجية لا تؤمن بوجود حياة أخرى ولا بعث ولا خلود . إذن لابد ان يحصل الإنسان على حقوقه كاملة فى هذا العالم وليس فى أى عالم آخر غيره .

وبريق الأشياء الاستهلاكية القادمة من الغرب ممثلا فى أوربا .. والقادمة من الشرق ممثلا فى اليابان . هذا البريق الروسى تجرى له بعض التعديلات ولكنه موجود . من قبل ، كان هذا البريق يدور حول أشياء الاستعمالات الصغيرة . وقد تم تلبيتها من قبل بعض الصناعات الروسية . ولكنه يتحول الآن إلى بعض الصناعات المعمرة الاخرى ، إنه مثل الافق الـذى لا حدود له ، ولا مفر من

ان يدخل هـذا الأفق ضمـن الأهتمـامات الجوهـرية للصناعات السوفييتية فى المرح القادمة

إعلان الحرب على الفودكا

حرب الخمر وحرب التدخين ، حروب روسية داخلية من أجل الأجيال القادمة . بالنسبة للتدخين فإن نسبة عالية من الروس الذين تقابلهم لا يدخنون ويتم هذا لأسباب صحية أساسا . وأكثر الذين شاهدتهم يدخنون من سائقى التاكسى وعاملات الفنادق والعمال . والحرب ضد التدخين تتم من خلال تقليل الأماكن التى يمكن ان يدخن فيها الانسان . وهى الآن أصبحت محصورة فى الشارع والمنزل ودورة المياه ، ولذلك فإن محلات وأكشاك بيع السجائر لا يوجد عليها أى إقبال يذكر ولا يقترب منها أى طابور ..

وبالنسبة للمدخنين فإن السيجارة القادمة من الغرب مازالت لها أولوية على السيجارة المحلية .

عن الخمر قال لى المستشرق ايجوريرماكوف :

– لقد قررنا القضاء على الخمر فى خمس سنوات من الآن . وذلك من أجل صحة الأجيال القادمة ، إن حربنا ضد الفودكا على طريق « الدب الروسى » الشهيرة . سنقضى عليها تماما .

سألته :

– والعاملون فى مثل هذه الصناعات ما مصيرهم ؟

قال لى :

– ليست هذه مشكلة . يمكن تحويلهم إلى صناعات أخرى نافعة .

لذلك توجد الآن تعليمات صارمة ومشددة بعدم تناول الخمور فى أوقات العمل الرسمية ، وعدم قيادة السيارات فى حالة سكر والعقوبة هى سحب رخصة

القيادة مدى الحياة ، وفى المآدب والاحتفالات الرسمية لا يتم شرب الانخاب على الطريقة الروسية والتى كانت جزءا ثابتا من تقاليد هذه المآدب . ومن حق المواطن الحصول على زجاجة فودكا واحدة فى الأسبوع ، وعليه أن ينتظر فى طابور لمدة تزيد على الساعتين من أجل الحصول على هذه الزجاجة الواحدة .

خـــط من ؟

يتولى تنفيذ السياسة السوفييتية الجديدة وزير خارجية جديد هو أدوارد شيفرنادزه . أول رجل يدخل إلى مبنى وزارة الخارجية الشهير ، والذى يعد أحد معالم موسكو . بعد أن بقى جروميكو فى هذا المبنى من سنة ١٩٥٧ وحتى الآن . بدون أنقطاع .

والخط السياسى السوفييتى الخارجى الراهن ، يقوم على فكرة إكمال خط أندروبوف ، رجل المخابرات الذى حكم الكرملين فترة قصيرة . وان كان يتم التخلص من رجاله واحدا بعد الآخر . حتى داخل المخابرات السوفييتية نفسها مما قد يؤدى إلى إضعافها فى مواجهة أجهزة مخابرات الغرب مستقبلا .

والرؤية السياسية السوفييتية تقوم على جوهر التقارب مع الوطن العربى وفى المقدمة مصر . واعتبار الغرب أيديولوچية معادية ومحاولة ضربه من الداخل واختراق صفوفه التى لم تعد متراصة واستغلال الفجوات التى قد تتسع بين بعض الدول الاوربية وأمريكا . والعداء للصهيونية . والموقف السوفييتى الثابت ضد أى انقسام في منظمة التحرير الفلسطينية . وان كانت لهم تحفظات جوهرية على بعض سياساتها فى الفترة الأخيرة.

لكن الجديد فى السياسة السوفييتية الخارجية هو الاتجاه شرقا .

إن العقل السوفييتى يتجه الآ ن الى الصين واليابان وهى خطوة جديدة تماما فى تكوين الصورة السوفييتية . وربما من أجل تنفيذ هذه التغيرات كان

لابد من مجىء وزير خارجية جديد . إن هذه المنطقة لم تكن واردة أبدا من قبل فى استراتيجية اندريه جروميكو .

وفى الوطن العربى أكدت تجربة السنوات العشر الماضية ، فشل سياسة البدائل من خلال التركيز على العلاقات بدول أخرى غير مصر ، إن التجربة أوضحت أن هذه السياسة لم تعد مجدية .

ضد الصهيونية

اليهود السوفييت مشكلة حادة هناك ؛ البعض يتحدث عن محاولة سوفييتية لتذويب اليهود السوفييت فى الواقع الروسى ، والموقف الرسمى من مسألتهم واضح ومحدد. ولكن القضية عادت الى مسرح الاحداث بقوة قبل لقاء ريجان وجورباتشوف . كنوع من استغلال المناسبة .

والارقام تقول إنه قد غادر الاتحاد السوفييتى فى الشهرين الاخيرين ١٢٠ يهوديا فقط . وهو رقم ضئيل إذا قورن بأى أرقام سابقة . وإن كان هناك توقع بأن يزداد الرقم بصورة غير عادية فى الفترة القادمة حتى لقاء ريجان وجورباتشوف كنوع من تحسين أجواء اللقاء . ويقال إن اسرائيل قد استعدت لاستقبال ١٥ ألف يهودى فى الفترة القصيرة جدا . وفى هذا الإطار هناك الآن حملة ضارية صهيونية فى الغرب ضد الاتحاد السوفييتى .

ولكن الموقف السوفييتى الواضح . ان اليهودى السوفييتى هو مواطن سوفييتى اصلا . ولد على هذه الارض وله كل الحقوق وعليه كل واجبات المواطنة. ويسألون : هل يطلب من اليهودى الفرنسى الهجرة ؟ فلم يحدث هذا مع اليهود السوفييت . انه من الصعب دعوة مواطن سوفييتى لتغيير جنسيته . قال لى معلق سياسى :

– إن قالوا إن إسرائيل أفضل فلابد من محاكمتهم بتهمة الخيانة العظمى .

وهناك لجنة تكونت من اليهود أخيرا من أجل مكافحة الصهيونية . ولكن الموقف السوفييتى صعب ، إنه يتحدد بين وضعين أحلاهما مر . الأول هو حالة الكراهية العامة لليهود . والثانى : الأضرار الناتجة عن السماح لهم بالهجرة من البلاد .

وحالة الكراهية لليهود ليست مطلقة وليسوا كلهم مع إسرائيل . وقد قابلت مستشرقين يهودا منهم ضد إسرائيل والصهيونية على طول الخط .

ريجان يظهر

فى موسكو حالة من التعبئة الكبيرة لرجل الشارع السوفييتى انتظارا للقاء ريجان – جورباتشوف – والذى تحدد له يومى ١٩ ، ٢٠ من نوفمبر القادم زمانا وجنيف مكانا . وموسكو فى أنتظار زيارة جورج شولتز وزير الخارجية الأمريكية لها لبحث هذا اللقاء المهم . ومن المتوقع ان تكون موضوعات هذا اللقاء أربعة . كما علمت بذلك فى موسكو :

١ – الاتفاق على الحد من تصدير الأسلحة التقليدية إلى دول العالم .

٢ – بحث حل المنازعات الإقليمية .

٣ – حقوق الانسان .

٤ – العلاقات الثنائية .

والموقف الحقيقى فى الاتحاد السوفييتى ، إن هذا اللقاء لن تكون فيه حلول لأية قضية ولن يتم حسم أى موضوع مطروح ، وأقصى هدف لهم هو ايضاح حقيقة الموقف السوفييتى للرأى العام الأمريكى والأوربى والعالمى . وهذا

اللقاء قد يقدم بعض الاجابات الأمريكية عن التساؤلات السوڤييتية : هل تريد الإدارة الأمريكية سلاما أم لا ؟ القضية ليست طرح تنازلات من أى من الطرفين بقدر ما هى محاولة للاتفاق مع إدارة ريجان .

والسوفييت يرون ان إدارة ريجان تلعب الآن اللعبة القديمة نفسها . وهى التصعيد الشديد قبل اللقاء ، وإجراء ريجان لأكبر قدر من اللقاءات مع زعماء من العالم من أجل ان يبدو قبل اللقاء وكأنه يجمع أكبر قدر من الخيوط بيديه . ولا مانع من عدة عمليات تليفزيونية واستعراضية تسبق اللقاء .

وقد سألت أكثر من مرة :

– هل كانت رحلة جورباتشوف إلى باريس لجس النبض أم أنها بروفة للقائه مع ريجان ؟

يجيب البعض أن ذلك غير صحيح ، وان ما أقوله نوع من التساؤل المشروع ، ولكن رحلة جورباتشوف محاولة قد تستمر فى المستقبل ، نحاول الأستفادة من الاستقلال الأوربى عن أمريكا ، وفرنسا من أهم رموز هذه النزعة .

نحن نتحدث طويلا – يقول جورباتشوف بالحرف الواحد – فى الفترة الأخيرة عن السلام لا عن ضعف ولا عن تراجع ولا عن تخاذل ، ولكن لأن لدينا سلم أولويات جديدة يقوم على بناء المساكن وتوفير الطعام والملابس والحياة الجديدة للمواطن السوفييتى .

وفى سيرك موسكو الجديد فى الفقرة الأخيرة يتحول فيها السيرك كله إلى كرة أرضية ، والفقرة تحذر من أخطار حرب الكواكب وتدعو إلى وقف التسليح النووى .

ماء النيل

– من بدأ رحلته بمصر وصل إلى كل مكان فى الوطن العربى كله .. ومن خرج من مصر ، خرج من المنطقة جميعها ..

هذا ما سمعته بالحرف الواحد أكثر من مرة من مسئولين سياسيين وأدباء وكتاب ومفكرين وجنود مجهولين فى مراكز صنع القرار الخاص بمصر فى الاتحاد السوفييتى الآن .

وفى الاتحاد السوفييتى معملان يقدمان المادة لصانع القرار الخاص بمصر . الأول : إدارة فى اللجنة المركزية يتولاها الدكتور أتاتولى أجارشيف . والثانى : هو معهد الاستشراق القومى . وقد جاء بريماكوف مدير المعهد إلى مصر وقابله الرئيس حسنى مبارك ، وأجارشيف عاش فى مصر فترة من الوقت وفيه روح مصرية صميمة .

لكن السوفييت لهم الكثير من الملاحظات ، هناك من يقول إن مصر لا تريد العودة إلى العلاقات معهم . وهم لا يتحدثون عن علاقات متميزة أو خاصة ولكن علاقات عادية ، فالعلاقات الحالية أقل من العادية من وجهة نظرهم .

يقولون : إن هناك عقبات أساسية فى الأمر . فى مقدمتها موضوع الديون القديمة الذى فشل الطرفان فى الوصول إلى أية صيغة له .

هناك أيضا طلب سوفييتى بزيادة عدد الدبلوماسيين السوفييت فى السفارة السوفييتية فى القاهرة . ويمكن لمصر ان تفعل هذا أيضا فى سفارتها بموسكو . سمعت أيضا ما يقال عن جزء من عمارة فى الجيزة تطل على النيل كان يسكنها بعض الدبلوماسيين السوفييت . وقد تم الاستيلاء عليها فى زمن السادات ثم طلبوا إعادتها . ولكن الحكومة المصرية طلبت اللجوء إلى القضاء من أجل استعادتها .

يتحدثون أيضا عن ان الحكومة المصرية ، لا تعطى المصدرين والمستوردين المصريين من القطاع الخاص التسهيلات المطلوبة من أجل التعامل مع الاتحاد السوفييتى ، ولا حتى التشجيع العادى .

تياران عن مصر

في موسكو تياران بخصوص مصر . تيار يرى ضرورة تطوير العلاقات معها . وتيار يرى عكس هذا . وهذا التيار الثانى يرى أنه حتى لو حدث تقارب من جانب مصر الآن . وفى ظل الموقف الراهن . فقد يكون هدفه الأساسى مجرد الضغط على أمريكا .

ولكن التيار الآخر يتحدث عن زيارة الرئيس مبارك للسفارة السوفييتية لتقديم العزاء فى وفاة تشيرنينكو ويقولون إنها سابقة لم تحدث من قبل .

ولكنهم يقولون : إن ما تم حتى الآن كان خطوة أولى .. وفى عالم اليوم الذى يجرى بسرعة لا أحد يهتم بالخطوة الثانية مع أنها قد تكون أكثر أهمية وحسما من الخطوة الأولى .

والآتى

في مكتب سفير مصر لدى الاتحاد السوفييتي : صلاح بسيونى صورة كبيرة الحجم للسد العالى . وكأن الرجل يريد ان يقول ، لكل من يدخل إلى مكتبه من خلال هذه الصورة ، إنه لا يبدأ من فراغ فى عمله ، وإنه عندما ذهب إلى موسكو لأول مرة ، كانت هناك أسس متينة للعلاقات بين البلدين لابد من البدء بنفض التراب عنها . وان كان السد العالى أبرز هذه الرموز فهو ليس الرمز الوحيد في مصر فيها ، ومن هذه الرموز : تسليح الجيش المصرى – الحديد والصلب – مجمع الالومنيوم – القطاع العام المصرى .

وفى هذه الأيام تمر سنة على وصول سفير مصرى إلى موسكو ومجىء سفير سوفييتى إلى القاهرة . بعد فترة من عدم وجود سفراء بين الدولتين وان كانت العلاقات قد ظلت قائمة .

ومن الصعب التوقف أمام هذه السنة التى مرت بحسابات الربح والخسارة، وطرح سؤال ماذا تحقق خلالها وما لم يتم تحقيقه بعد ؟ ومن المتوقع ان يحضر السفير المصرى : صلاح بسيونى إلى القاهرة فى شهر ديسمبر القادم.ومن المؤكد ان حضوره سيتحول إلى تقويم دقيق للعلاقات بين البلدين . وحتى يتم هذا التقويم فان الناس فى الاتحاد السوفييتى يسألون بلهفة عن البرتقال واليوسفى المصريين ويقولون إن هذه الأشياء الجميلة لا يمكن ان تأتى سوى من مصر .

بل ان هناك حالة من الاهتمام بالمانجو المصرية ، دفع بعض علماء الزراعة هناك إلى الحديث عن خطر يهددها ، وهو قادم من دولة تجاور مصر من الناحية الشرقية يقولون إنها تضع فى المياه المصرية بعض المحاليل التى قد تقضى عليها . وهذه الدولة هى اسرائيل التى تغتصب فلسطين وتحتلها

والاتحاد السوفييتى سوق مفتوحة أمام العطور وأدوات الزينة والتجميل والأحذية وكل الصناعات القطنية . وقابلت فى لينينجراد فوجا سياحيا مصريا يقول إن السياحة فى هذه البلاد أفضل وأرخص من أى بلاد أخرى . وما من مدينة ذهبت إليها فى الاتحاد السوفييتى حتى وجدت طلبة ومبعوثين مصريين يدرسون فى معاهدها وكلياتها .

وقد قال لى محلل سياسى :

- إن دورات التاريخ البطيئة قد أقنعت الروس بأهمية تطبيع العلاقات مع مصر . وإن قرارا بهذا المعنى قد صدر على أعلى المستويات السياسية، وأن هذا القرار قد نزل إلى القواعد . ولكن تبقى الخشية من التنفيذ . إن بعض الآثار الجانبية هنا أو هناك ربما كانت ضارة .

يوم خاص فى بيت دستويفسكى

ركبت قطار موسكو لينينجراد السريع ، فى العاشرة مساء وبعد ليلة روسية فى القطار وصلت إلى لينينجراد صباحا . كان القطار يخترق الليل الروسى القديم ، تحت سماء بيضاء مضاءة متألقة ، خالية من النجوم . كان القطار يخترق الليل ، مثل عينى أديب واقعى وقح . كان معى فى القطار نفسه الطاهر وطار، الروائى الجزائرى الكبير والذى يعد الآن فى طليعة الروائيين العرب، وسميح القاسم صوت الغضب الشعرى القادم من السجن الكبير الذى نسميه خطأ : فلسطين المحتلة ، والشاعر العراقى الكبير : سعدى يوسف والذى تتحول أبيات الشعر على لسانه إلى بكائيات عربية لا أول لها ولا آخر . كان معى من الروس . المستعرب السوفييتى : أيجور يرماكوف ذلك الانسان المسكون بحلم مصرى لا ينتهى ، والدكتوره أولجا دومينكينا الحاصلة على الدكتوراة فى الأدب العربى ، وأولجا فلاسوفا المترجمة من العربية إلى الروسية ، وأوليج ذلك الشاب الروسى من أبناء لينينجراد والذى شارك فى عملية الترجمة عند تدريب رجال الجيش المصرى على صواريخ «سام » قبل حرب السادس من أكتوبر العظيمة .

سألت الدكتورة أوليجا :

- لماذا لا يحتل القطار مكانا مهما فى الأدب السوفييتى ؟

كان السؤال مباغتا ، فكرت قليلا ، ولكنى أكملت :

– باستثناء رواية اناكارنينا الذى يلعب القطار دورا رئيسيا فيها ، لا يوجد القطار فى الأدب الروائى السوفييتى مع أنه يلعب دورا مهما ورئيسيا فى حياة الشعب السوفييتى .

قالت لى أوليجا :

– موضوع جديد ومهم جدير بالمناقشة وإن كنا لم نلتفت اليه من قبل .

المتحف المسكون بالبشر :

لينينجراد اسم جديد وحديث لمدينة قديمة ومعمرة كان اسمها قبل ثورة أكتوبر « بطرسبورج » ، وكانت هى عاصمة روسيا القديمة . وبعد الثورة أطلق عليها اسم لينين ، وجراد تعنى مدينة . ونقلت العاصمة إلى موسكو .

ولينينجراد ليست مدينة بالمعنى الحرفى ، انها متحف قديم ، ينتمى إلى الأزمنة البعيدة ، يسكن هذا المتحف الآن أبناء القرن العشرين ، متحف استطاع الخروج من معطف العصور الوسطى وأن يبقى فى قرننا العشرين .

والمدن مثل النساء ، تراها أولا بصورة مجملة ، ثم تبدأ فى رحلة النبش بحثا عن التفاصيل الدقيقة ، تمنحك أسرارها واحدا بعد الآخر ، تجعلك تشرب رضابها قطرة قطرة . ولينينجراد منحتنى نفسها فى الثامنة صباحا ، حيث المطر والضباب وأوراق الخريف الذهبية اللون .

أدباء بطرسبورج

أحد ملامح المدن هى التماثيل التى تزين ميادينها ، مررت بتمثال فى ميدان عام ، وعندما دققت النظر فيه ، اكتشفت أنه بوشكين ولكن لينينجراد ، التى كانت بطرسبورج قبل الثورة هى مدينة دستويفسكى .

عندما سألت عنه اكتشفت أنه لا يوجد له تمثال واحد فى المدينة ، سألت من جديد . تحدثت الدكتورة فاليريا كيبرتشنكو ، المستعربة المعروفة وأهم من ترجم الأدب العربى إلى الروسية اليوم . والتى تعد جسرا للتفاهم الحقيقى بين الأدبين العربى والروسى . وقبل أن تتحدث سألتها من جديد :

– هل هناك موقف سوفييتى من دستويفسكى ؟!

قالت الدكتورة فاليريا كيبرتشنكو :

– دعنا لا نتحدث عما مضى – ليس هذا وقته الآن – ولكن فى أيامنا توجد عملية إعادة اعتبار لدستويفسكى . نحن الآن نعتبر أن لدينا ثلاثة من الكلاسيكيين الخالدين : تولستوى ، بوشكين ، ودستويفسكى .

سألتها :

– كيف يترجم ذلك إلى واقع ؟ لم أقرأ عملا واحدا له مترجما إلى العربية منشورا عندكم .

قالت ، ردا على سؤالى ، وقد تحول ردها إلى خبر جديد :

– هذا العام والعام القادم ، تنشر دار التقدم أعمال دستويفسكى الكاملة فى ثمانية عشر مجلدا ، هى عبارة عن ترجمة الدكتور سامى الدروبى ، وهذا يحدث للمرة الأولى .

مرة أخرى ، وقف السؤال فى منتصف المسافة بينى وبينها :

– هل كان هناك موقف منه ؟ وكيف ؟

قالت الدكتورة فاليريا كيبرتشنكو :

– دستويفسكى لعب دورا سلبيا بأدبه بالنسبة للشباب ، كان ذلك من

الأمور الصعبة ، ولكن الأمر انتهى الآن .

أما الدكتـــورة أولجـــا دومـينكينا ، فقد توقفت أمـــام الكلمـات قبل أن تنطق بها :

– دستويفسكى حفار قلوب ، كان يحفر كثيرا فى القلب الانسانى ، لكى يعثر على الصديد والدماء التى فيه ، وليس من أجل رؤية النور القادم من القلب الإنسانى .

أكملت بعد قليل :

– هذا رأيى الشخصى من قراءاتى له .

أما الطفلة ايرينادوميميكنا ، ابنة الدكتورة أولجا ، فقد قالت :

– لا أحب قصصه .

كانت أولجا تتذوق النطق العربى بكلماتها ، وكان المعنى الذى يستدير فى ذهنى يقول :

– ظلم الكتاب لغة عالمية ، ليست فى حاجة إلى من يترجمها من لغة إلى أخرى . فكم أحببت هذا الكاتب العظيم ، خاصة ان عبقريته الحقيقية تكمن فى علاقته الفريدة بالنفس الإنسانية من الداخل ، وقد حدث هذا قبل كل اكتشافات علم النفس وغيرها .

في بيت دستويفسكى

حمدت الله أن فى لينينجراد متحفا لدستويفسكى ومتحفاً لبوشكين وهما من أبناء المدينة أصلا ، وقررت أن أخصص يوما من الأسبوع الذى قضيته فى لينينجراد لزيارة متحف وبيت دستويفسكى .

والمتحف يقع على رأس شارع جانبى، والشارع يحمل اسمه ، وهو

متفرع من شارع نيفسكى ، وهو يحمل فى قسمه الأول اسم : نيفا النهر العظيم الذى يقسم مدينة لينينجراد إلى قسمين وله روافد كثيرة فيها .

وهذا المتحف ليس هو الوحيد لدستويفسكى فى الاتحاد السوفييتى ، فله أكثر من متحف آخر فى أمكنة أخرى ، مثلا المستشفى الذى ولد فيه دستويفسكى وهو مستشفى للفقراء فى موسكو ، حيث كان والده يعمل طبيبا فيه قد تحول إلى متحف .

والمتحف ليس خاصا به ، ولكن بعصره ، ففى الطابق الأول صور لمدينة لينينجراد فى زمنه ، وفى مكان خاص رسائل دستويفسكى بخط يده ، ورسائله إلى أبيه وأشقائه وإلى أبناء عصره ، خط جميل منمق ، لا توجد كلمة واحدة مشطوبة فى الرسالة كلها ، وان كان الشطب يزداد ويتكاثر فى مخطوطات أعماله الروائية . الكتب المدرسية التى كان يدرس فيها وعليها العبارات التى كتبها بخط يده فى الهوامش فى لحظات المذاكرة . الكتب التى قرأها دستويفسكى فى شبابه بصوت عال على أفراد أسرته : شيكسبير ، جورج صائد ، بلزاك . ورقة امتحان دستويفسكى ، صور لكاتدرائية بطرسبورج .

فى هذه الفترة الباكرة أهتم دستويفسكى ببوشكين ، وهذا دولاب كامل فيه أعمال بوشكين . وصورة لصديق دستويفسكى نيكراسوف . الشاعر الروسى الكبير .

وفى هذه الأثناء تعرف أيضا على إيفان تورجنيف .

مخطوطات أعماله ، يوميات كاتب ، مذكرات من العالم السفلى ، بيت الأموات . والاخوة كرامازوف .

الحكم بالاعدام

فترة السجن ، ثم الحكم عليه بالاعدام ، نص تقارير الشرطة السياسية السرية عنه وعن تحركاته السرية بنفس خط الشرطى الذى كتبها بها على نفس الأوراق الرسمية .

يكتب دستويفسكى رسالة نادرة إلى أخيه ميخائيل ، يصف فيها لحظة تنفيذ حكم الاعدام فيه . وهى اللحظة التى خرج منها أدبه كله بعد ذلك ، يقول فيها :

– « أخى ، كل شىء قد تقرر سلفا ، لقد أتوا بنا إلى ساحة بطرسبورج وأعطونى صليبا لكى أقبله ثم كسروا السيوف فوق رءوسنا وألبسونا القمصان البيضاء وجاء السوارى لكى ينفذوا الحكم . لقد نفذوا الحكم – حكم الاعدام – فى ثلاثة ، وكنت انا أول الدفعة الثانية ، لم تبق سوى دقيقة واحدة من الحياة . وقد فكرت فيك أنت يا أخى العزيز . دقيقة واحدة هى التى بقيت لى فى هذا العالم ، لكى أقبل أصدقائى ، ولكن الطبول بدأت تدق ، وهذا معناه الاعلان عن إبطال تنفيذ حكم الاعدام » .

ومرحلة السجن لها مكان خاص فى المتحف ، فهناك نص التقارير الأمنية المكتوبة عنه خلال فترة السجن ، وخريطة السجن الذى قضى فيه العقوبة والاوراق التى دخل بها السجن والتى خرج منه بها .

يكتب لأخيه متأملا حياته :

– لست حزينا يا أخى ولا ضعيفا ومعنوياتى قوية . الحياة هى الحياة فى أى مكان . فى السجن أو فى الشارع . لأن الحياة فينا نحن وليست خارجنا ، وفى السجن سيكون حولى باستمرار أناس آخرون . إن الحياة تقتضى أن أكون

واحدا من البشر . وأن يكون لى فى كل لحظة أشقاء وبذلك لا نفقد قوتنا ولا معنوياتنا . لقد فهمت هذه الحقيقة جيدا الآن . ان الفكرة اقتحمت لحمى ودمى .

هنا كان يسكن

باب البيت الذى كان يسكنه دستويفسكى عادى . والبيت من طابقين . سكن هو فى الطابق الثانى منه . وراء الباب مباشرة مشجب للمعاطف ومكان للمظلات ومرآة طويلة وقنديلان قديمان وشماعة ملابس عليها القبعة التى كان يرتديها ثم غرفة أطفاله . ابن وإبنة فقط . الابن فيدور يحمل نفس اسم والده ، والابنة لويا ، وفى الغرفة نفس اللعب التى كانا يلعبان بها وكتب الأطفال التى كان يقرأ لهما منها بصوت عال . والكتب هى : مؤلفات بوشكين . ولجوجول : تاراس بولبا . وقصائد ليرمونتوف ورسالة موجهة من دستويفسكى الى ناشره يطلب اليه بعض المال على وجه السرعة ، ورسالة أخرى يطلب فيها الى ناشره ان يرسل نسخة من رواية « ديفيد كوبريفلد » لديكنز على حسابه الخاص . وصورة لدستويفسكى مهداة بخط يده الى أنيا الطيبة العزيزة من نفسى . كانت أنيا هى زوجته وهى التى تساعده فى عمله ، وهى التى كانت تعد النسخة الأخيرة من رواياته قبل النشر . وقد قال لها تولستورى :

– كثير من الكتاب الروس كانوا سيشعرون أنهم أفضل لو تزوجوا من امرأة مثلك .

مكتب دستويفسكى

كان دستويفسكى يحب الشاى كثيرا ، كان يشرب منه فى غرفة السفرة كوبين ، ثم يحمل الثالث الى غرفة المكتب . وفى حجرة السفرة على الحائط صورة للمسيح وحوارييه ثم صور ليهوذا .. وكان دستويفسكى

يكتب فى الليـــل فقــط وبعـــد أن ينام أفــراد أسرته ، زوجتـه وابنه وابنته .

وفى المتحف نص رسـالة تولسـتـوى عنه بعـد وفـاته ، الرسـالة بخط يد تولستوى :

– بعد موته أدركت أنه كان أقرب وأعز انسان الى نفسى ، وان كنت لم أره أبدا رأى العين ، كنت أتمنى رؤيته والتحدث اليه فى المستقبل ، ولكن هذا لم يحدث لسبب بسيط : أنه مات . إن مؤلفات دستويفسكى وذكاءه الحاد يثيران فى داخلى حالة من الغيرة .

ربما لا يحب أحد فى الاتحاد السوفـيـيـتى الحديث عن الروح ، وربما تصوروا أنها أساطير شرقية ، ولكنى خلال التجوال فى بيته المتواضع الصغير والمكون من أربع غرف ، كنت أشعر بأنه موجود معنا ، ينظر الينا من مكان عال . يحلل ما نقوله ويريد – فى بعض الأحيان – أن يوضح لنا بعض الأمور .

فى اليــوم التـــالى ، أحـضــر لى مـصـــرى يدرس فى الجـامـعــة السوفيتيه ، خريطة لمدينة لينينجراد بسطها إمامى وقال :

– هنا نهر النيفا حيث رمى راسكولنيكوف الساطور الذى قتل به العجوز، وهنا فى مدخل هذا المعبد جلس ايفان كرامازوف لكى يناقش أخاه فى مسألة الدين . أما من هذه الغابات فقد أتى الأمير مشيكين ، الأبله الروسى الشهير الذى قدمه دستويفسكى باعتباره مسيحا جديدا .

ذهبت بعد ذلك الى الأماكن نفسها ، وقفت فيها صامتا ، أدركت فى ذلك الصمت الشتوى البارد ، ان الابداع هو نوع من الكفاح ضد الفناء . وأن كل كلمة صادقة تشترى سنة أخرى من الخلود للكاتب .

مـا أكـثـر الكتـاب فى كل الأزمنة والأمكنة ، ولكن مـا أقل الذين يضـعـون

أيديهم على الجوهر . وهذا الجوهر الحقيقى هو الطريق - ربما الوحيد - الى الخلود .

الأدب السوفييتى اليوم

سافرت الى الاتحاد السوفييتى ، وفى ذهنى من الأدباء السوڤيت المعاصرين لنا الآن أربعة من الكتاب ، قرأت لهم وأعجبت بهم وكنت أتمنى لقياهم ، أولهم : جنكيز ايتماتوف صوت آسيا السمراء ، الصافى والواضح الكاتب الأقرب الينا نحن أبناء الحرف العربى . و الثانى : رسول حمزاتوف الذى يخيل اليك أنه كتب أعماله بالعربية أولا ثم ترجمت الى الروسية وأعيدت ترجمتها الى العربية مرة أخرى . كتاباته مناجم عامرة بذلك الحب وتلك الحكم . .والثالث : يفجينى ايفتشينكو ، ذلك الشاعر الكبير وصاحب الصوت الشعرى العالى ، والرابع فاسيلى اكسيونوف صاحب الرواية الرائعة : الزملاء ، هناك اكتشفت أن الخريطة الأدبية فى الاتحاد السوفييتى تبدو مختلفة عن تصوراتنا هنا فى الوطن العربى . فاسيلى اكسيونوف لا أحد يتحدث عنه هناك . فقد انشق دون أن ندرى نحن هنا ، وكلمة انشق تعبير استخدمته أنا ولكنهم هناك قالوا لى فى صمت :

- اكسيونوف ؟! لقد هرب الى الغرب وهناك يعيش الآن .

تذكرت على الفور ، ان انشقاقه حسب تعبيرى . أو هروبه وفراره حسب تعبيرهم لم يكن مفاجئا ، كانت له مقدماته فى روايته الزملاء.

وقبل وصولى الى الاتحاد السوفييتى بعامين كان قد مات آخر العباقرة الكبار من جيل الكلاسيكيين الأول ، انه ميخائيل شولخوف صاحب الرواية العظيمة : « هادئاً ينساب الدون » . ويجرى الآن تحويل بيته الى متحف فى قريته البعيدة عن موسكو .

وقد قابلت افتشنكو مصادفة فى مطعم اتحاد الكتاب السوفييت . وقرأت

له خلال وجودى هناك قصيدة رائعة عنوانها : هل يريد الروس حربا ؟، و قد سألت عنه بعد هذا اللقاء الذى صنعته الصادفة وتمنيت لو أننى قابلته . فقيل لى إنه لو حضر مؤتمر اتحاد الكتاب السوفييت فسألقاه فى المؤتمر ، ولكنى لم أجده فى المؤتمر وعندما سألت عنه قيل لى إنه سافر خارج البلاد .

أما رسول حمزاتوف ، صاحب « داغستان بلدى » فقد قيل لى إنه مسافر الى خارج البلاد . وقد كنت حريصا على لقاء جينكيز اتيماتوف ، ليس لأنه أشهر الكتاب السوفييت خارج الاتحاد السوفييتى وداخله أيضا . وليس لأنه قريب منا نحن أبناء الوطن العربى ، ولكن لسبب آخر . ففى رواياته مساحة من الحرية لا تجدها لدى كاتب آخر .

عندما سألت عنه، قيل لى إنه ربما يحضر المؤتمر وهناك يمكنك أن تقابله، ولكنه لم يحضر الى المؤتمر ، قيل لى إنه يتنقل من قيرغيزيا – حيث الجمهورية التى يعيش فيها ويكتب عنها – إلى موسكو ، والمهم أننى عدت دون أن أقابله .

تسعة آلاف كاتب

الآن ، يوجد فى خريطة الابداع الأدبى فى الاتحاد السوفييتى أدباء جدد لم نسمع عنهم هنا فى الوطن العربى .

قال لى ايجور يرماكوف ، المستشرق المعروف ومستشار اتحاد الكتاب السوفييت للأدب العربى :

– فى بلادنا تسعة آلاف كاتب أعضاء فى اتحاد الكتاب السوفييت ، وهناك أعداد كثيرة تنتظر القبول ولكن الاتحاد يدقق كثيرا فى قبول الأعضاء .

من الكتاب الذين لهم جماهيرية واسعة القاص : فاسيلى شوكشين . وهو ممثل وكاتب ، توفى منذ عشر سنوات ويدرس الآن الاتحاد السوفييتى تحويل

بيته الى متحف وله جماهيرية واسعة بين القراء . وله مجلد قصصى يضم أفضل ما كتب عنوانه :

« العناقيد الحمراء »

وهناك أيضا فالنتين راسبوتين وهو قصاص معاصر ، يكتب كثيرا فى الصحف والمجلات ، والشباب السوفييتى يقبل على قراءته بصورة غير عادية وهناك الشاعر الكبير دودين ، والكاتب جورجى ماركوف صاحب رواية : الآباء والأبناء ، وهو رئيس اتحاد الكتاب السوفييت . وهناك الشاعر ايسايف صاحب القصيدة الرائعة : الساعة الخامسة والعشرون . والقصيدة كلها عبارة عن رسالة من شهيد روسى من شهداء الحرب العالمية الثانية .يصحو ويعبر الأطلنطى ويذهب الى البيت الأبيض لكى يقول للرئيس الأمريكى : لو قامت الحرب القادمة ستكون الساعة الخامسة والعشرين للبشرية كلها .

والشعب السوفييتى قارىء بصورة نهمة . ما أن يعلن عن بيع بعض الكتب الجديدة . حتى يتحول الناس الى طوابير طويلة للشراء ، والكتب رخيصة بدون حد وأى كتاب ينفد خلال أسبوع رغم أن الكميات المطبوعة هناك من أى كتاب لا تقل عن ١٥٠ ألف نسخة ، وهناك كتب يصل عدد المطبوع منها الى الملايين من الكتب . والناس تقرأ فى الحدائق وفى المترو وحتى على السلم الكهربائى ، وطالب المرحلة المتوسطة – التى تقابل الاعدادية عندنا – لابد أن يقرأ كل ماكتبه الكلاسيكيون الروس جيدا ويمتحن فيه .

فاوست ودون كيشوت

شاهدت فى لينينجراد أوبرا فاوست ، وذهبت فى موسكو الى مسرح البولشوى ، وكلمة بولشوى تعنى بالروسية الفخم أو الكبير . وهناك شاهدت باليه :

دون كيشوت ، من خلال رؤية عصرية . وقد حصلت على تذاكر العرض بصورة استثنائية وبعد تدخل من اتحاد الكتاب ومن صديقة المصريين فى موسكو الدكتورة فاليريا كيبرتشنكو ، فالمواطن ينتظر نصف سنة حتى يحصل على تذكرة .

دموع موسكو

وقضية الحرية من القضايا الحاضرة الغائبة فى الوعى الجماعى للكتاب السوفييت ، وعندما تسأل عن مساحة عباءة الحرية يقولون لك على الفور إن كلمة الحرية من أدبيات الايديولوجية الغربية ، وإننا نتحدث عنها كثيرا فى الوطن العربى ، لأن أعلامنا كله قادم من الغرب ، وردا على السؤال عن الديمقراطية وقضاياها يقولون لك إن الديمقراطية على الطريقة الليبرالية القادمة من الغرب ليست مطروحة وإن كان من المتوقع أن تحدث حالة من الديمقراطية بعد المؤتمر القادم للحزب الشيوعى السوفييتى .

وقد قالت لى باحثة سوفييتية بالحرف الواحد :

– الحرية الفردية تأكل نفسها كالنار تماما ، ونحن نتحدث عنها من خلال لغة أخرى ومفردات مغايرة ، فالأغلبية دائما على حق .

وفى هذا الإطار تبدو العملية الابداعية مغامرة صعبة ، فما أكثر الرقباء الذين يقفون حتى فى قلب الكاتب ، ولذلك فإن الكاتب الذى يتمكن من الابداع ونشر عمله ويلاقى قبولا من الجماهير ويحقق حالة من الانتشار الجماهيرى يصبح شيئا كبيرا جدا ، ويعامل هناك باعتباره نبيا ولكن على الطريقة السوفييتية .

تحدثت طويلا عن أفق الحرية وعن عباءة الديمقراطية وعن المدى الذى

يمكن أن يصل إليه الانتقاد فى عمل أدبى وعن المعارضة الأدبية ، ولكن يبدو لى أن اللغة فى بعض الأحيان تبدو مجهدة ومتعبة وعاجزة عن أحداث التواصل المطلوب ، ليس بسبب الترجمة ولكن لسبب آخر تماما : أن المفردات التى استخدمتها فى طرحى للقضايا تبدو غريبة عن المفردات التى يستخدمونها هم .

قال لى أكثر من كاتب ، لدينا حرية ، إنطلاقا من تجربتنا ، ولكننا نطلب المزيد من الحرية فى المرحلة القادمة .

الموت ظلما واغترابا

أزهـرى فى روسـيا

.. حتى أنا ظلمته دون أن أدرى ، وقفت فى طابور من ظلموه ، وهو أطول طابور لظلم إنسان ، يمتد فى الزمان من القرن الماضى ، ويصل حتى زماننا ، ويتربع فى المكان ، من روسيا إلى مصر المحروسة ، مروراً بالامبراطورية العثمانية .

والحكاية أننى قضيت أسبوعا فى مدينة لينيجراد بالاتحاد السوفييتى ، كانت الزيارة الأولى ، حيث العودة إلى بحار الدهشة القديمة ، ومحاولة تذوق المرئيات .

بعد العودة ، وجدت السؤال فى انتظارى :

– هل زرت قبر الشيخ الطنطاوى ؟! وقرأت الفاتحة على روحه ؟

بدأت رحلة البحث عن هذا الأزهرى المدفون فى أصقاع بلاد الشمال الباردة ، من الصعب القول إننا قد نسيناه ، لأن أجيالا كثيرة خرجت إلى الحياة لا تعرف من هو الشيخ الطنطاوى .

إسمه بالكامل : محمد بن سعيد بن سليمان عياد المرحومى الطنطاوى الشافعى ، ولد فى قرية نجريد ، من قرى الغربية سنة ١٢٢٥ من بعد هجرة الحبيب المصطفى و ١٨١٠ من بعد ميلاد السيد المسيح .

كان والده من قرية محلة مرحوم ، وفى ذلك الزمان البعيد ، كانت محلة مرحوم لها وزن أكثر من طنطا التى أصبحت عاصمة الأقليم ، عندما بنى على بك الكبير مسجدا فى طنطا للولى المعروف السيد أحمد البدوى فتغير الحال ، أحيلت عاصمة إلى المعاش ، وخرجت إلى الوجود عاصمة أخرى ، والمدن كالناس ، تولد وتكبر ثم تأتى إليها الشيخوخة وأخيراً الموت ، وكان والده يعمل فى التجارة ، وكان له شقيق واحد هو مصطفى ، وقد عمل بالتجارة أيضا .

جاء محمد عياد الطنطاوى إلى عالمنا ، بعد حكاية نابليون بونابرت الذى حضر إلى مصر ، ومعه المدفع والمطبعة ، ثم عاد ومن بعده جنده ، معهم المدافع ولكنهم تركوا المطبعة فى بر مصر ، وأنبثق التاريخ عن المغامر الجسور ، تاجر الدخان الألبانى الذى قرر أن يستنبت طموحه الذى لا حدود له ، وأحلامه التى لا تعرف المنتهى فى تربة وادى النيل العظيم ، جاء ببذور أمانيه من أوروبا ، ولذلك كان من الطبيعى أن يرسل النوابغ والنابهين إلى أوروبا .

كانت تلك هى الكلمة الأولى فى مصير الطنطاوى ، وإن كان قد رحل صوب الامبراطورية الروسية بدلا من فرنسا ، التحق الطنطاوى بالكتاب فى سن السادسة ، وكانت شهرة طنطا فى تحفيظ القرآن تماثل شهرة القاهرة فى دراسة علوم الدين ، وقد قيل : ما قرآن إلا أحمدى ، وما علوم إلا أزهرية .

فى سنة ١٢٣٨ هـ ، ١٨٢٣ م ، رحل محمد إلى القاهرة ، دخل الأزهر الشريف ، وكان رفاقه فى الدراسة هم : رفاعة رافع الطهطاوى ، الذى أصبح صديقا له ، على الرغم من أن الطهطاوى كان يكبره بعشر سنوات ، وبعد ذلك أصبح الطهطاوى علم المرحلة ونجمها الكبير ، فى حين انزوى الطنطاوى فى زوايا النسيان ، حتى كتابه « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » ، فاق فى شهرته كتاب طنطاوى : « وصف روسيا » الذى مازال مخطوطا حتى الآن ، بل إن من كتبوا بعد ذلك عن الكتابين يقولون : إن طنطاوى كتب وصف روسيا وهو تحت تأثير كتاب الطهطاوى .

كان من رفاقه الشيخ محمد قطه العدوى محقق كتاب العروض ومحقق النسخة الأصلية والأساسية من «ألف ليلة وليلة» ، التى طبعتها مطبعة بولاق الأميرية ، وهى النسخة التى عاشت عليها كل الأجيال حتى لحظة كتابة هذه السطور .

وكان من أساتذة طنطاوى : حسن العطار ، وإبراهيم الباجورى ، ومحمد الترميذى صاحب القاموس الشهير : تاج العروس ، اتجه طنطاوى إلى دراسة علوم اللغة فى زمان كان كل ابنائه يتجهون إلى الفقه أولا ، والفقه أخيراً ، وكأنه بذلك قد بدأ الخطوة الأولى فى السباحة ضد تيار العصر ، وربما كان عطاؤه أهم وأكثر تحضرا فى ميدان علوم اللغة ، ولكن العصر كان عصر تفقه أكثر منه دراسة فى اللغة .

توفى والد طنطاوى بعد وصوله إلى القاهرة بخمس سنوات ، فكان عليه أن يدير شئون حياته إلى جانب الاستمرار فى دراسته ، فى سن العشرين قام بالتدريس فى الأزهر رغم أنها سن مبكرة ، وكان يعطى دروساً فى الشرح والتعليق على كتب الشعر والأدب ، وفى السابعة والعشرين من عمره جاء إلى مصر وباء ، وما أكثر الأوبئة فى هذا الزمان ، وكاد يفتك به ، لدرجة أن خبر وفاته عرف وأعلن فى القاهرة ، ولكنه نجا من موت محقق .

قضى فى الأزهر عشر سنوات مدرساً ، وانقطع عن التدريس فى بعض الأحيان بسبب مرضه ، وسيصبح المرض بعد تلك رفيق رحلته وأنيس غربته ، وسيقعده عن العمل فى الوقت الذى يصل فيه إلى ذروة المعرفة والانتشار ، والمرض لم يكن مشكلته الوحيدة ، مرتب الأزهر كان ضئيلا ، وكان لابد من عمل لكى يعيش ، وهكذا عمل طنطاوى فى وظيفة ثانية .

يبدو أن العمل الثانى الذى يمسك برقاب المثقفين فى مصر عمره أطول مما نتصور ، ربما كان مؤامرة قديمة لأكل المواهب ، وتبديد الوقت وتعكير صفاء الذهن ، ونسف القدرة على الإبداع .

كانت مصر قد عرفت المطبعة والطباعة ، وهكذا وجد طنطاوى عمله الثانى وهو التحرير والتصحيح لما ينشر من علوم أوروبا . لكنها القوانين ، الأقوى

والأكثر خلودا فى مصر ، التى أخترعت الأبدية . قوانين الأزهر منعته من العمل الثانى ، فبحث عن عمل آخر لا يعترض عليه الأزهر ، وقد كان .

عمل فى تدريس اللغة العربية وآدابها للفرنجة ، كان أول عالم لغوى ، فى أول مدرسه فى زمانه . وكان هذا التدريس هو الذى غير مجرى حياته كلها . كان من تلاميذه مستشرقون فرنسيون وألمان ، ومن بينهم - وهذا هو المهم - إثنان من روسيا ، التى لم يكن قد أطلق عليها الاتحاد السوفيتى بعد . هما : موخين وفرين. الأول هو : نيقولا موخين الذى كان مترجما فى القنصلية العامة الروسية فى مصر سنة ١٨٣٥ ، ثم نقل إلى إسطمبول بعد عامين ، مترجما رابعا فى السفارة الروسية هناك . التى كانت أهم سفارات روسيا فى الشرق كله ، حيث الامبراطورية المترامية الأطراف التى لا تحدها حدود .

تشاء أقدار الطنطاوى أن يكون نيقولا موخين هو مرافق رحلته إلى بطرسبرح بعد ذلك . والثانى هو رودلف فرين . كانت تلك هى الخيوط التى نسجت مصير الرجل ورسمت شكل حياته .

فى سنة ١٩٤٠ وجهت الدعوه بإذن من قيصر روسيا ، وموافقة محمد على باشا إلى الشيخ الطنطاوى ليسافر إلى روسيا ليقوم بتعليم اللغة العربية وآدابها فى القسم التعليمى التابع لوزارة الخارجية الروسية فى بطرسبرح ، وكانت هى عاصمة روسيا القيصرية ، وأصبح اسمها بعد ذلك لينينجراد ، وقد نقلت العاصمة فيما بعد إلى موسكو ، وذلك ان دوام الحال من المحال .

وحسب تقاليد ذلك الزمان ، إستعد الشيخ الطنطاوى للسفر إلى روسيا وربما يحتاج إليه سفره ، وكانت أهم بنود ذلك الاستعداد أنه اشترى جارية ، وأرسلها لكى تحصل العلوم فى باريس ، كنوع من الإعداد لها للحياة الجديدة ، ثم تزوجها حتى لا يكون وحيدا فى غربته وكانت هذه الزوجة تدعى « أم حسن » .

غادر الطنطاوى القاهرة ، يوم السبت الرابع والعشرين من المحرم سنة ١٢٥٦ ، الموافق السادس عشر من مارس سنة ١٨٤٠ . ركب صندلا فى النيل ، كان يسير ويتوقف حسب حالة الجو . مر بشبرا التى كانت مشهورة ببساتينها ، ولم يمر على طنطا ، لأن طريق بحر النيل ، لم يكن يحضنها ، كان بعيداً عنها ، ولكنه شم رائحتها عندما أستنشق هواء الغربية ، لم يتوقف فعفريت السفر كان قد ركبه وانتهى الأمر ، ولم يعد قادراً على ان يحط على الأرض .

وصل إلى الأسكندرية يوم الثانى والعشرين من مارس ، وكان لكل مدينة باب يقفل إذا جاء الليل ، يحميها من قطاع الطرق ورجال المنسر ، ولا يفتح الباب إلا صباحاً . وصل الطنطاوى إلى الأسكندرية بعد أن أقفلت أبوابها فإضطر إلى المبيت خارجها .

فى الأسكندرية ، المدينة التى يأتيها البحر ، وتضاجعه كلما أكل قلبها الاشتياق للفعل ، قضى طنطاوى عده أيام عند قنصل روسيا العام ، ركب بعدها باخرة فى البحر المالح ، لأول مرة فى حياته ، ذلك البحر الذى بلا شاطىء آخر .

وفى السادس والعشرين من مارس ، أصيب بدوار البحر . كان السفر عن طريق جزيرة كريت ، حيث تزودت السفينة بالفحم الحجرى اللازم للوقود ، وصلت إلى أزمير فى الثالث من إبريل ، قطعت الباخرة بحر مرمرة ووصلت إلى إسطمبول وأمضى الطنطاوى أياما فى الحجر الصحى ، وقابل السفير الروسى الذى كلف الترجمان موخين ، تلميذ الشيخ سابقا ، بمرافقته فى رحلته إلى روسيا .

غادرا إسطمبول فى الثالث والعشرين من إبريل ، ركبا باخرة روسية ، وخلال أربع وخمسين ساعة فقط وصلا إلى أودسا ، أنفق الشيخ الطنطاوى هذه الساعات فى دراسة اللغة الروسية ، كان الوصول إلى أودسا فى الخامس

والعشرين من إبريل ، وقضى وقته الذى مكثه فى الحجر الصحى فى تعلم الروسية أيضا .

شاهد فى أودسا الأوبرا الإيطالية ، حيث رأى رواية السلطان محمد فى المرة الأولى ، وفى الثانية رواية العاشقين ، ولم يكن فى المسرح من يلبس العمامة سواه ، غادرا أودسا يوم الأربعاء ، الثانى والعشرين من مايو ، اخترقا روسيا من جنوبها حتى شمالها . بعربات البريد التى تجرها الخيول وتمشى ببطء شديد ، رأى الطنطاوى بلادا سهولها شاسعة وأنهرها عريضة ، وخضرتها كثيفة وتخلو تماما من غبار الشرق الأوسط وحرارته وقيظه .

فى الخامس والعشرين من مايو ، وصل إلى مدينة كييف ، ونزل فى فندق لندن ، وتركها بعد يومين من الراحة ، ووصل إلى قرية موهلوف فى الثلاثين من مايو ، وأقام فيها ثلاثة وعشرين يوما ، لأن موخين ، رفيق الرحلة ، ومترجمها ، كان له أقارب فى القرية وطالت زيارته لهم .

فرك الطنطاوى عينيه من الدهشة وهو يرى المغناطيس لأول مرة فى حياته، وسلك أذنيه الشرقيتين على صوت العزف على البيانو فى بيوت الأهالى ، وحضر حفلات الرقص ، وزار الحمامات التى كانت تتفوق عليها حمامات القاهرة وإسطمبول كثيرا .

فى يوم السبت الثانى والعشرين من يونيو غادر الطنطاوى موهلوف ، وشاهد حريق مدينة الأسكندرية ، وهى مدينة صغيرة بناها الأسكندر ذو القرنين ، ورأى السكة الحديد الجديدة فى روسيا .

وفى يوم السبت التاسع والعشرين من يونيو سنة ١٨٤٠ وصل إلى بطرسبرج ، بعد سفر دام ثلاثة أشهر ونصف الشهر ، ، قضى منها شهرين فى الحجر الصحى ، وقريه موهلوف ، وصل فى زمن كانت الرومانسية الغربية ، قد

خلقت حالة غريبة من الاهتمام بالشرق ، لذلك كان من الطبيعى ان يجتذب الشيخ الأزهرى المعمم أنظار روسيا كلها .

عاش الرجل فى روسيا ، ولكن الحنين أكله إلى مصر ، فعاد إليها سنة ١٨٤٤ ، ثم رجع إلى روسيا حيث بقى بها حتى توفاه الله . وفى الثامن من أكتوبر سنة ١٨٤٧ ، وبعد سبع سنوات على حضوره إلى روسيا عين استاذا فى الجامعة ، وكان ميدان عمله قد إتسع ، فشمل الجامعة أيضا علاوة على وزارة الخارجية الروسية ، وفى تدريسه كان يجمع بين الطريقة النظرية والطريقة العملية .

كان يدرس قواعد اللغة العربية ، ويشرح أمثال لقمان ويقرأ قطعا تاريخية من مقامات الحريرى ، وكان يدرس الترجمة من الروسية إلى العربية ، والخطوط العربية ، وقراءة المخطوطات والمحادثه باللغة العربية ، وابتداء من سنة ١٨٥٥ ، بدأ يدرس تاريخ العرب .

وفى الخامس عشر من أغسطس سنة ١٨٥٠ ، إستحق الشيخ الطنطاوى الشكر القيصرى على جهوده فى التدريس لطلاب بطرسبرج ، وبعد عامين حاز ميدالية من أحد ملوك أوروبا شكرا له على قصيدة باللغه العربية ، ثم أهداه ولى عهد القيصر خاتما مرصعا بالجواهر شكرا على جهوده ، وفى هذه الأثناء كتب عنه الروس الكثير ، قالوا فى كتاباتهم ، « ان طيبة قلبه وطبعه تشبه صفات الأطفال وأن ذكاءه وإستقامته يستدعيان الاحترام الشديد » .

كان الشيخ الأزهرى المعمم ، يجلس على أريكه فى بيته ، يشرب الشاى ، وللشاى طقوس جميلة فى حياه الروس . ثم يتحدث عن مصر المحبوبة ، ورواتها ومغنياتها وراقصاتها ، وغيرها من المسرات التى كانت تملأ حياته بمصر ، وليس لها أى وجود فى حياه روسيا ، قالوا عنه : « إنسان تغلب على التعصب » . كتبوا

«مرح وعطوف » ، أكدوا : « ليس لمثل طنطـــاوى آخـر فى هذا العـــالم كلـــه » .

قام الطنطاوى بالتدريس خمس عشرة سنة منتظمة ، ووصلت شهرته إلى أوجها ، وفى سنة ١٨٥٥ افتتحت كلية اللغات الشرقية ، وكان أفتتاحها حدثا مهما بالنسبه له ، ولكن يبدو أن لحظات تحقيق الأمانى ، هى نفسها ، لحظات فقدانها ، ففى أيام المجد ، خانته صحته ، والعلة التى تصيب الجسد فى الغربة تصبح مأساة ، وهكذا أصبحت حياته نوعا من الهم المتصل . وفى هذا العام نشر آخر مقالة له بالفرنسية ، وقال آخر قصيدة شعرية فى رثاء القيصر نيقولا الأول .

والذى حدث ، أنه فى سبتمبر من عام ١٨٥٥ ، أصيب بشلل فى قدميه ، والأوراق التى تركها الرجل بخط يده عن هذه الفترة ، تكاد الدموع تنزف من الحروف المكتوب بها .

فى إبريل ١٨٥٦ ، طلب من الأطباء أن يمدوا له أجازته المرضية ثمانية وعشرين يوما ، ليسافر إلى بوهيما ، وذلك للعلاج بمياهها المعدنية الساخنة ، ولا يدرى الإنسان لماذا لم يطلب العودة إلى مصر ، ويدفن الجزء المصاب منه فى رمالها الساخنة ؟ ما علينا .

فى مارس من العام التالى ، طلب السفر إلى الخارج للعلاج ، والخط المكتوب به الطلب ، وتوقيعه عليه ، يشى بمدى تدهور حالته الصحية . وفى السابع من فبراير سنة ١٨٦١ تقاعد عن العمل .

ثم قدمت الجامعة طلبا لتقدير معاش تقاعدى للطنطاوى ، بمناسبة مرور عشرين عاما على خدمته فى روسيا ، بسبب مرضه ، واستدعى من أجل توقيع الكشف الطبى عليه ، فأجاب إنه لا يمكنه المجىء بسبب المرض ، ويبدو أن الكشف الطبى قد جرى فى بيته . واستعفى من الخدمة فى ٣١ يناير سنة ١٨٦١

أما التقاعد فقد تقرر في يوليو من السنة نفسها بمبلغ ١٤٢٩ روبلا ، ولم يطل زمان انتفاعه به ، فقد توفى فى التاسع والعشرين من أكتوبر سنة ١٨٦١ ، وكما يذكر فى شهادة لإمام مسجد بطرسبرج ، أنه مات من مرض الأكلة .

وهكذا مضى الرجل ، ولكن ماذا عن أسرته التى كونها فى الغربة ؟ فى التاسع عشر من مايو ١٨٥٠ ، ولدت زوجة الطنطاوى ولداً أسموه « أحمد » ، ولأن زوجته « أم حسن » توفيت قبله ، توسل الطنطاوى فى ١٧ أكتوبر سنة ١٨٦٠ أن يقبلوا أبنه فى داخلية إحدى المدارس الوسطى على حساب الدولة الروسية ، بسبب مرضه ووفاة زوجته .

وبعد وفاة الطنطاوى ، توسل عميد المدرسة الداخلية لدى ذوى الأمر أن يبقى معاشه لأبنه ، وصار الوصى الرسمى على « أحمد » الأستاذ كسوفتش ، الذى عرض سنة ١٨٧٠ باسم أحمد على جامعة بطرسبرج شراء مجموعة مخطوطات الطنطاوى ، وقد اشترتها المكتبة سنة ١٨٧١ .

وهكذا استوطن أحمد الطنطاوى روسيا ، وقد قدم فى الثلاثين من سبتمبر سنة ١٨٧٢ ، طلبا بإعتباره تابعا عثمانيا ، إلى إدارة الجامعة ، لكى تعطيه سجل خدمة أبيه ، ليقدمه إلى الإدارة الروحانية المسيحية فى بطرسبرج لأداء القسم ، حتى يستطيع الحصول على التبعية الروسية ، وقد توفى أحمد فى أواخر القرن التاسع عشر ، ودفن فى جبانة المسلمين ، حيث سبق دفن أمه وأبيه ، وجبانة المسلمين كانت موجودة فى قرية فولكوف القريبة من بطرسبرج ، ولكن الزمان محا تماما آثار قبر أم حسن وأحمد ، ولم يبق سوى قبر الشيخ الطنطاوى فقط .

وفى الثالث والعشرين ، من إبريل سنة ١٨٨٦ ، قدم الوصى سولڤيوف طلبا إلى إدارة الجامعة ، لكى يعطوه وثيقة عن الطنطاوى الأبن ، ليقدمها لمجلس

الأشراف ، لإدخال حفيدة الطنطاوى « هيلانة » فى طبقة الأشراف ، حتى يمكن تربيتها فى دار أيتام الأشراف .

وهكذا نكتشف أن حفيدة الطنطاوى قد أصبحت مسيحية ، ونكتشف ضياع آثار أسرة من بلاد الأهرام الدافئة ، فى أصقاع روسيا الباردة .

مات الطنطاوى ظلما واغترابا ، والظلم لم يحدث له بعد رحيله ، كما يحدث عادة ، ولكنه كان ضيفا ثقيلا غير مرغوب فيه فى حياته نفسها . فى سنة ١٩٤٠ ، كتبت ساڤيليف : « أن اسم الطنطاوى معلوم لدى كل من يدرس العربية ، مع أنه لم يؤلف شيئا » . وكتب غويفوريف : « أن تدريس الشيخ الطنطاوى ، لم يترك أى أثر فى روسيا ، والدور الأساسى الذى لعبه كان فى الاستشراق الفنلندى » .

أما الدكتور أغناطيوس كراتشوفسكى ، مؤسس الاستشراق فى روسيا كلها ، فقد وضع يديه على قدر الطنطاوى ومأساته معاً ، فى كتابه الجميل الذى ألفه عنه (*) ، وتأليف هذا الكتاب حدث مهم لمن يعرف قدر الرجل ، فى روسيا والعالم ، يقول كراتشوفسكى :

« كان الطنطاوى معاصراً لأغلبية رجال النهضة الأوروبية البارزين فى القرن التاسع عشر ، لكنه سار على خط غير الذى سار عليه معاصروه المشهورون ، لقد بقى فى عزلة عن الحركة العامة ، ولم يشترك فيها ، أو يؤثر فى

(*) والكتاب عنوانه : « **حياة الشيخ محمد عياد الطنطاوى** » . تأليف : أغناطيوس كراتشكوفسكى ، ترجمه إلى العربية : كلثوم عودة وراجع النص العربى وحققه وعلق عليه . عبد الحميد حسن ومحمد عبد الغنى حسن ، ونشره : المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية سنة ١٩٦٤ ، ولولا هذا الكتاب الفريد والمهم ما كان ممكنا كتابة هذا المقال عن الشيخ الطنطاوى .

تطويرها ، كان الطنطاوى ربيب الأزهر ، حيث كانت التقاليد الكلامية ثابتة فى ذلك الحين ، ولكن الطنطاوى كان بعيدا عن دائرة صحفيى ذلك العهد الذين تحلقوا منذ سنة ٢٨ حول الجريدة العربية الأولى ، وقد انضم الطهطاوى إليهم ، ولا ندرى كيف يمكن أن تكيف حياة الطنطاوى ، لو لم يرحل إلى روسيا وله من العمر ثلاثون سنة ».

ولكنه انعزل عن حياة وطنه الروحية حتى كاد ينسى لدرجة أن العلماء المصريين ، المندوبين فى مؤتمر المستشرقين ، المنعقد فى ستوكهولم سنة ١٨٨٩ ما كانوا يعلمون عن وفاة مواطنهم ، التى وقعت قبل ذلك بثمانية وعشرين عاما كاملة .

كل هذا جرى ، على الرغم من أن الطنطاوى ترك حين وفاته واحداً وأربعين مؤلفا ، معظمها ، مخطوط لم ينشر حتى الآن ، لعل أهمها كتابه الفريد : « وصف روسيا » وعنوانه الكامل : « تحفة الأذكياء ، بأخبار بلاد روسيا ، وقد أهداه إلى السلطان عبد المجيد » .

ورغم مرور كل هذه السنوات على رحيله ، إلا أن أحداً من بنى وطنه ، من مصر ، لم يتحرك ، لتحقيق كتبه ونشرها ، ودراسة رحلته الفريدة والدور الذى قام به ، وما أكثر الرسائل الجامعية التى تلوك ما قيل من قبل وتكرره ، وتعيد وتزيد ، مهملة منجم ذهب حقيقى يتمثل فى آثار هذا الرجل ، الذى طارده الظلم والغربة ، حيا وميتا، ولاحق الظلم نتاجه الأدبى والفكرى، وحتى أسرته لاقت نفس المصير

قام الطنطاوى برحلته ، فى نفس الوقت الذى قام فيه الطهطاوى برحلته إلى باريس ، ولكن الأول بقى فى روسيا ، فى حين عاد الطهطاوى ، والأول طواه النسيان والنكران والثانى أصبح علما على عصر بأكمله .

إغتـرب الطنطاوى عن الوطن والديار ، فى زمن لم يكن المصـرى قـد٥٩ تذوق فيه طعم الاغتراب ، ولا كواه الحنين إلى بر مصر .

قضى سنوات عمره في أبعد مكان عن مصـر ، فى ذلك الوقت البـعيد ، والغربة أسـلمته إلى ظلم بيّن ، وحتى الآن لا أعـرف من أين جاءت البداية ، الغربة التى أوصـلته إلى ظلم ، أو الظلم الذى رمى به إلى الغربة ، أم أن كل عصـر يكون فيه رجل واحـد ، يذبح كل أبناء جيله من أجل أن يمتد ظـله إلى العصر كله .. ؟!

١٩٨٩

التحــول

مخاطر تهدد بروسترويكا جورباتشـــــوف

وصلت الى موسكو فى السادسة صباحاً ، كان العالم كله دائرة واسعة من اللون الأبيض ، فى الجو ضباب جميل ، والأرض والأشجار والأشياء والمبانى مغطاة بالثلج ، وهذا حال يثير الإحساس بالشجن .

فى قصص الكتاب السوفييت وصف يتكرر دائماً ويقول ، إنه ما أن ينزل ثلج الشتاء حتى يتسلل الإحساس بالكآبة الى النفوس . وما أن يبدأ ذوبان الثلوج ، حتى تأتى مقدمات الفرح الإنسانى .

وبالنسبة لى ، كقادم من بلاد حارة ، تسبح فى الصهد والسخونة والغبار ، فإن هذا الجو يبدو قريباً من الأحلام . من الصعب أن تعرف فى موسكو الآن ، أين ينتهى الشتاء ولا أين يبدأ الربيع ، الشتاء يولى وإن كانت علاماته تفرض نفسها ، تتشبث بالبقاء . ومقدمات الربيع موجودة هنا وهناك وهذه الأيام نفسها عنوان لرواية جميلة ، من عيون الأدب السوفييتى هى « ذوبان الثلوج » لإيليا إهرنبرج .

موسكو لثالث مرة ، و« الثالثة ثابتة » كما يقولون ، وهى ثابتة لأن بلاد السوفييت « وطن الاشتراكية الأول » يقف فى هذه الأيام ، أمام لحظات مصيرية وحاسمة فى تاريخه كله . منذ الثورة الاشتراكية الكبرى وحتى الآن .

مشكلتى الأساسية عندما أكتب أن هذه الأيام ، فى موسكو ، حاسمة ومصيرية ، أكون قد دخلت الى أرض اللغة الممسوحة المعالم ، العاجزة عن

الإيحاء بالدلالات التى أبحث عنها ، لأننا نقول هنا – فى هذا الجزء من العالم – عن كل الأيام أنها حاسمة ومصيرية ، ثم يتضح لنا بالدليل العملى أن زمن الحسم قد ولى ، وأن الأيام المصيرية تبدو كما لو كانت من ذكريات الماضى البعيد .

ومع هذا أجازف وأقول ، إن الأيام الحاسمة والمصيرية تطل على موسكو وجميع بلاد السوفييت ، وبصرف النظر ، إن كان الحسم إيجابًا أو سلبًا ، بمنطق الفعل أو رد الفعل ، بالثورة أو الثورة المضادة ، فإنه يقف على أبواب موسكو يتربص بتلالها السبعة الشهيرة .

نكتــــة

ومن يصل إلى موسكو ، يسمع نكتة على شكل حكاية ، أرويها هنا على سبيل الدخول إلى رواق موضوعى ، لأنها تلخص الكثير مما يجرى الآن فى بلاد السوفييت .

يقولون إن فلاحًا قصد موسكو لأول مرة ، فى محطة القطار الرئيسية قابل قريبًا له من الذين يعيشون فى العاصمة ، سأله ما الذى أتى به إلى موسكو، قال الفلاح إنه جاء الى موسكو ليقضى ثلاث حاجات ، الأولى : أن يتمكن من شراء بدلة مستوردة من الغرب ، من تلك البدل التى بدأت تنتشر أخيرا فى البلاد، والثانية : بعد أن يشترى البدلة ويرتديها بدلاً من الأفرول الذى يلبسه ، يذهب لأول وآخر مرة الى مسرح البولشوى الذى قضى عمره كله يسمع عنه ، وإن لم يذهب إليه من قبل أبدًا ، ويخشى أن ينقضى العمر دون أن يراه . والثالثة : أن يزور ضريح لينين ، وأنه يريد أن ينجز هذه المهام الثلاث فى أسبوع واحد ، ويعود فى نفسها هذا اليوم الى بلده .

قال له قريبه ، إنه يشك فى قدرته على فعل أى من الحاجات الثلاث ، لسبب بسيط أنه هو نفسه يعيش فى موسكو منذ ربع قرن دون أن يتمكن من فعل أى منها .

بعد أسبوع بالضبط ، تقابلا فى محطة القطار ، كان الفلاح قد تمكن فعلاً من إنجاز حاجاته الثلاث . وعندما سأله قريبه ساكن المدينة كيف تمكن من تحقيق هذه المعجزات الثلاث وفى أسبوع واحد فقط ؟

قال له :

– فى متجر بيع البدل الأجنبية ، قال لمدير المتجر إنه يريد بدلتين ، وقبل أن يعترض المدير ويقول إنها بدلة واحدة فقط ، قال له الفلاح إنه يريد واحدة لنفسه والثانية يقدمها هدية له – أى لمدير المتجر بمناسبة تعارفهما – وعلى الفور جاءته بدلة أنيقة وجميلة ومناسبة للونه وشكله ومقاسه وإن كان قد دفع ثمن بدلتين.

فى مسرح البولشوى قال لعاملة شباك بيع التذاكر إنه يريد ثمانى تذاكر فى أقرب فرصة ممكنة ، يحصل على واحدة فقط ، أما السبع الأخرى ، فيقدمها هدية لها – لعاملة شباك التذاكر – وهكذا حصل على تذكرة واحدة فى نفس اليوم – وهذا ما لم يحدث من قبل أبداً – وإن كان قد دفع ثمن ثمانى تذاكر .

– وضريح لينين .. ماذا فعلت إذن ؟

سأله قريبه متلهفاً ..

– بسيطة ، حملت صندوق فودكا معى ، المشروب الذى أصبح ممنوعاً ، والحصول عليه ليس سهلاً أبداً ، وإن وجدته لا تجد أكثر من زجاجة واحدة .. ذهبت الى المسئولين عن الضريح وقدمت الصندوق هدية ، أخذوه بسعادة ، وقالوا

اذهب الى الفندق الذى تقيم به ، وسنحضر لك لينين حتى غرفتك بالفندق حتى تشاهده على راحتك ، وتتكلم معه إن شئت .

وأسأل بعد هذه النكتة الروسية الطويلة .. هل وصلت الرسالة ؟

لوحـــة

واللوحـــة كانت معروضة فى شارع الفنانين فى قلب موسكو شارع «أربات» ، ويقولون إن أصل اسم الشارع عربى ، فهو إما مأخوذ من كلمة « عربات » العربية أو يعد تطويرا لكلمتى مربط الخيل العربيتين أيضًا . وأن هذا الشارع كان نهاية قوافل السفر التجارية العربية التى كانت تصل الى موسكو محملة بالبضائع .

أربات الآن هو شارع المتفننين ، فى كل فن من الفنون ، واللوحة رسمها فنان ووقف يعرضها للبيع صباح يوم الأحد ، وهو يوم السوق الأسبوعى .

فى اللوحة ثلاثة قديسين ، الأوسط له ملامح وجه ستالين ، وفى يده بلطة تسيل منها قطرات الدماء التى تنزل على صحيفة البرافدا ، وكتب ماركس ولينين، على يمينه ينظر بريجنيف بتأفف إلى ما يجرى ، وعلى يساره ينظر خروشوف بسخرية .

وفى نفس الأسبوع الذى كانت تعرض فيه هذه اللوحة للبيع فى شارع أربات ، نشرت نشرة تصدرها اللجنة المركزية للحزب الشيوعى السوفييتى النص الكامل والدقيق لرسالة خروشوف حول عهد ستالين ، وهى الرسالة التى نشرت من قبل فى الغرب محرفة ومضافًا إليها ، ومحذوفًا منها . وهى تنشر فى الاتحاد السوفييتى ولأول مرة ، ومن خلال نشرة اللجنة المركزية .

لكن البعض يرى أن حكاية الهجوم على ستالين وعصره يبدو مثل الطبخة التى سبق أن أكلت من قبل أكثر من مرة وهضمت ، والاقبال عليها من جديد ، يبدو مسألة صعبة .

جوهر الأزمة

وأصل المشكلة أن المواطن السوفييتى العادى ، يشعر أنه تعب من الإستماع الى كلام لا نهاية له ، دون أن يرى أى إنجاز حقيقى خلال استماعه الى كل هذه الكلمات ، والفيصل - من وجهة نظر هذا المواطن العادى - هو الإنجاز والفعل وتحسين حياته . فالكل يتفق على أن عملية إعادة البناء كانت ضرورة ، وكان لابد منها فى هذا الوقت بالذات ، فمن غير المعقول أن دولة عظمى مثل الاتحاد السوفييتى ، التى وصلت الى القمر وتقدمت فى مجال التصنيع العسكرى بصورة منافسة للغرب ، ومع هذا مازالت صناعة الجوارب - مثلاً - أكثر من متخلفة ، مع إهمال شديد لأمور بسيطة قد يحتاج اليها المواطن العادى فى حياته اليومية .

عند هذا الأمر يتفق الجميع ، ولكن بعد هذا ، يجرى الخلاف حول عملية إعادة البناء نفسها ، وفى أى اتجاه تسير . فهناك قطاع عريض من المثقفين ومن أبناء الشعب يؤيدون هذا الاتجاه الجديد ، ويبدون سعادة حقيقية بهذا الذى يجرى ، ويجربون - لأول مرة - الجو الجديد ، من الحريات التى لم تكن موجودة من قبل .

لكن هناك قطاعاً عريضاً آخر من الشعب ، ينظر الى هذه الإصلاحات ، بقدر من الريبة والشك ، ويرى أنها اقتراب من المنهج الغربى فى الحكم وفى العمل . وهؤلاء المتشككون يقال عنهم « الحرس القديم » أو المجموعات التى

أفقدتها عملية إعادة البناء وضعها المتميز داخل السياق السوفييتى . وأنها إنما تدافع عن مواقعها ومصالحها . وعمومًا فإنه من المسموح به الآن فى الاتحاد السوفييتى - ومن خلال القنوات الموجودة - أن تناقش عملية إعادة البناء وأن تقال اجتهادات كثيرة حولها . لكن الرفض القاطع لها ، يبدو عملية محفوفة بالمخاطر ، لأن الرفض القاطع للتجربة السوفييتية قبل زمان جورباتشوف كان يقابل فى العادة بترحيب غربى واضح ، ومن يرفض كان يقال عنه « منشق » وكان يلقى العناية المطلوبة فى الغرب ، ولكن يبدو أن زمان المنشقين قد ولى ، والرجل الذى يقود البلاد نفسه أصبح نجمًا فى الغرب الرأسمالى . وما يفعله يقابل بترحيب فعلى فى الإعلام الغربى ، بل إن تصريحات بعض المسئولين الغربيين تذهب الى ضرورة تقديم العون لجورباتشوف حتى يمضى فى طريقه إلى آخر الشوط .

الذين ينتقدون تجربة جورباتشوف ، يقولون فى مجالسهم الخاصة إن السفارة الأمريكية فى واشنطن مشغولة - فى هذه الأيام - بعمل دراسة مقارنة عن السادات ومصر فى منتصف السبعينات . وجورباتشوف والسوفييت فى النصف الثانى من الثمانينات ، وأن هناك أوجه تشابه كثيرة بين التجربتين ، وإن كان هذا الكلام لا يوجد دليل حقيقى عليه حتى الآن .

المخـــاطر

لكن تجربة جورباتشوف تواجه الكثير من المخاطر ، فى سيرها ، ومثقف سوفييتى يقول عن هذه المخاطر ، إن أكبر أزمة تواجه جورباتشوف أنه يحكم بلادا كانت معظم إنجازاتها - على مدى السبعين سنة الماضية - فى الميدان الخارجى ، بينما ترك الميدان الداخلى للعمل بقوة الدفع الذاتى ، ابتداء من الثورة الاشتراكية الكبرى ، ووصولاً الى بروسترويكا جورباتشوف نفسها ، فان

الإنجاز الخارجى يسبق الإنجاز الداخلى تماماً ، سواء أكانت الحرب العالمية الثانية ، أو غزو الفضاء ، أو السباق النووى ، أو الوقوف مع قضايا العالم الثالث ، أو المجابهة مع العالم الرأسمالى ، وإعلان الحرب الدائمة ضد الامبريالية .

وربما كانت هذه الانجازات الخارجية مطلوبة ، وضرورية ، ولكن كان لابد أن تواكبها انجازات الداخل أيضاً وفى نفس الوقت .

والذين يقفون مع جورباتشوف ، والذين لهم تحفظات على إجراءاته ، يتفقون على أن هناك قدراً من المخاطر التى تهدد التجربة الآن . ومجرد الحديث عن هذه الأمور ، جديد تماماً على الاتحاد السوفييتى الذى لم يكن أحد يجرؤ فيه على الكلام من قبل ، حتى فى أبسط الأمور .

الاقتصاد هو أول المخاطر على التجربة ، والمواطن السوفييتى لكى يلخص هذه التجربة يقول باختصار وببساطة شديدتين إن الأموال أصبحت الآن مثل أوراق اليانصيب إمتلاكها لا يعنى القدرة على الشراء . تنزل الأسواق ومعك المال اللازم ، ولكن الكثير من البضائع لا وجود له ، بضائع كان من المستحيل عدم وجودها من قبل ، هذا يحدث فى موسكو العاصمة ، فما بالك بالحال فى البلاد الأخرى ، والمدن الصغيرة والريف والجمهوريات النائية .

وهذا أمر طبيعى ، ذلك أنه توجد حالة من الاستهلاك الجديد ، والاقبال على شراء البضائع ، ولكن القدرة على تلبية هذه الحاجات مازالت محدودة .

والخلل الاقتصادى من الأمور التى تخرج من دائرة حديث المجالس وتصل فى بعض الأحيان إلى مقالات منشورة فى بعض الصحف حتى الرسمية جدا منها .

وندرة البضائع ليست المشكلة الاقتصادية الوحيدة ، هناك أزمة « اقتصاد الظل » ، والتعبير ليس من عندى ولكنه من مقال منشور فى صحيفة أ« نباء موسكو » والمقصود به تجارة العملة خارج القنوات الرسمية أو ما نسميه نحن فى أدبيات الكتابات الاقتصادية المصرية السوق السوداء للعملة ، وعلى الرغم من أن الدولار فى البنك يساوى ٦٠ كابيك أى حوالى ٦٠٪ من الروبيل الروسى ، إلا أن الدولار فى الأسواق السوداء أو فى اقتصاد الظل يصل الى عشرة روبلات .

وهناك حديث عن مافيا تعمل فى سوق العملة ، تتميز بالانضباط الشديد وتوزيع الأدوار والعمل الدقيق .

أيضًا فهناك حالة من « الشبق البضائعى » ، الذى يتعدى حدود النهم المعروفة ، وهذا الشبق موجه فى الأساس الى البضائع الأجنبية .

وحتى توفر الدولة هذه البضائع الأجنبية ، وتحارب سيوكولوجية عمليات الظل ، قامت شركة « فنسينا » فى موسكو ، بافتتاح مخزن ، يحتوى ولأول مرة على كمية كبيرة من البضائع التى يرغب الأجانب والسياح فى بيعها للمواطنين السوفييت .

الشركة أعلنت فى الصحف تقول : خلال خمس دقائق فقط تحل جميع معضلاتكم المالية . والاعلان المنشور كان بأربع لغات أجنبية .

والمخزن هو مخزن يودراكى فى شارع كالنين ، وهو يتولى بيع ما يرغب السائح فى بيعه مقابل عمولة مالية قدرها ١٥٪ من الثمن ، ٧٪ منها تحسب قومسيون ، و ٨٪ تحول الى صندوق لرعاية المدينة .

فى شهر واحد فقط كان الشراء بـ ٥٨ ألف روبل ، والبيع بـ ٦٩ ألف روبل ، وهناك فكرة إنشاء محلات أخرى فى كل الفنادق والمطارات والموانئ

والأماكن الحدودية . والذين يقبلون على بيع ما معهم بهذه الطريقة هم السياح القادمون من : بولونيا ، بلغاريا ، يوغوسلافيا .. بلدان الشرق الأوسط . أما السياح القادمون من البلدان الرأسمالية فلا يفكرون فى الاقتراب من هذا المخزن.

اللـــوبى

من مخاطر الوضع الجديد فى بلاد السوفييت تنامى الدور اليهودى بصورة قد تحمل معها الخطر في القريب . جورباتشوف قرر إعادة افتتاح مركز ثقافي يهودى فى موسكو كان معطلاً عن العمل منذ زمان ستالين . تولت الانفاق عليه الجالية اليهودية فى أمريكا . ويوم افتتاحه وجه إسحق شامير رئيس وزراء اسرائيل رسالة الى القائمين عليه ، مما أكد أن هذا المركز قد يلعب دوراً سياسيًا متناميًا فى الفترة القادمة .

بعض الذين يتخوفون من هذا النفوذ ينظرون بقدر من الخشية ويقارنون بحال اللوبى الصهيونى فى أمريكا وقدرته على التأثير فى مجريات الأمور هناك ، ويقولون إن هذا التحرك اليهودى يقابله غياب عربى شبه كامل فى العاصمة السوفييتية .

وهذا التنامى عبر عن نفسه من خلال أمرين :

الأول : هو أن استراتيجية اليهود السوفييت قد جرى تغييرها بصورة جذرية فى الفترة الأخيرة . فبعد أن كانت الهجرة من البلاد هى المطلب الأول لهم، أصبح البقاء هو الموقف الرئيسى عندهم ، ثم يبدأ والعمل من الداخل ، وتراجعت كل الحكايات التى كانت تقال عن تسهيل هجرة اليهود من الاتحاد السوفييتى ، وضمان وصولهم الى اسرائيل ، بل إن البعض يقول إن القانون السوفييتى الذى

يشترط على من يهاجر عدم العودة مرة أخرى الى البلاد هو السبب ، الوحيد ، فى عدم عودة بعض من هاجر فعلاً من قبل .

الأمر الثانى : هو ما يجرى فى أوساط المثقفين بالذات ، فهناك حالة من التحول ، التى ربما أثرت على وقوف الاتحاد السوفييتى مع الحق العربى ، فى المستقبل .

فى منتصف هذا الشهر ، يزور الاتحاد السوفييتى وفد من الكتاب الاسرائيليين - ولأول مرة - منذ عدوان يونيو سنة ٦٧ . وفى الشهر القادم ، يزور الكاتب السوفييتى جنكيزاتيماتوف - والذى يعد الآن أشهر الكتاب السوفييت على الإطلاق - اسرائيل بدعوة من اتحاد كتابها ويبقى فيها أسبوعًا .

هذا ، وقد توجه عدد من المثقفين الفلسطينيين الى عدد من الشخصيات السوفييتية الكبيرة فى مختلف المجالات التى عرفت بدفاعها المستمر عن اليهود السوفييت ، يطلبون منهم إصدار بيان تأييد للانتفاضة وتنديد بالإجراءات الوحشية والقمعية التى تمارسها اسرائيل ضد الانتفاضة . وقد كان الرد أنه من الصعب إصدار مثل هذا البيان . ذلك أن القائمين بالانتفاضة - هكذا يرى مناصرو اليهود السوفييت الأمر ببساطة مذهلة - يمارسون هم أيضًا القتل والارهاب ضد الدولة الاسرائيلية .

وحكاية اليهود يمكن أن يقال إنها من مخاوف العرب المشروعة ومن أشكال القلق الفلسطينى التى لابد منها ، والسبب أعمق من هذه المظاهر ، فالذين قرأوا كتاب جورباتشوف « البيروسترويكا » يقولون إنه يتحدث عن قضية الشرق الأوسط فى سطور معدودة وبدون عمق فنى ، ومشروعية المخاوف والقلق أن الاتحاد السوفييتى كان نصيرًا أساسيًا للحق العربى المشروع ، وللحق الفلسطينى الذى وقف معه السوفييت بصورة جيدة .

الهـــوية

القـضـيـة الأيديولوجيـة هـى الخطر الثـالث الذى ربمـا يهـدد ثورة جورباتشـوف ، والأزمة تنشأ من أن الثورة هذه المرة يقودها سيد الكرملين ، أى أنهـا ثورة من أعلى ووجـهت بثورة مضـادة ، وبين الثورة والثورة المضادة تتعرض بديهيات الماركسية اللينينية لخطر حـقيقي . والكل يقول ان جذور مـا قـام به جورباتشـوف موجودة فعلاً منذ أيام أندروبوف ، لكن إن كان هدم القديم سهلاً وميسوراً ، فإن التحدى الأساسى دائمًا هو بناء البديل لهذا الذى تم هدمه . ثمة حـالة من التداخل الشديد بين الماضى والجديد ، بين كل مـا كـان قـائمًا ، وبين الوليد الجديد الذى يحبو الآن فى بلاد السوفييت .

والماركسية اللينينية نفسـها تعرضت لعمليات تطوير واجتهادات أساسية، سواء فى الماركسية اللينينية من خلال الأحزاب الشيوعية الأوروبية – بالذات الموجودة فى دول أوروبا الغربية – أو فى بعض التجارب الأخرى داخل المعسكر الاشتراكى نفسه مثل رومانيا ويوغوسلافيا بالذات .

لكن التطوير الذى يجرى فى موسكو ، يبدو الهجوم على القديم أكثر حضوراً من محاولة بناء الجديد . إن الكل يبدو مشغولاً بتحرير شهادة وفاة الوضع الذى كـان ، مع أن الأصل والأساس هو تحرير شـهادة ميلاد الوضع الجديد ، ذلك ما يستحق الاهتمام الأول .

والوضـع الجديد ، لا يمكن أن يقوم بتشييده كلام وأقوال فقط ، ولكن بناء نظرى متكامل ، يقوم على أساس تطوير الماركسية اللينينية نفسها ، التى أرست دعائمها ثورة أكتوبر الاشتراكية الكبرى . وهذا الجهد التنظيرى مطلوب أكثر من كل هذه الحملات للهجوم على ستالين وزمانه وانجازاته وتجاوزاته أيضًا .

خاصة ان التمادى فى الهجوم على ستالين وعلى ما فعله بالبلاد ، قد يولد حالة من محاولة الانتصار على الماضى . وكل هذا يشغل الجميع عن مواجهة الوضع الراهن ، الذى يتطلب مواجهة حقيقية وحاسمة ، وموضوع الهوية ليس ترفًا يمارسه المثقفون فقط ، ولكنه أمر مهم وضرورى ولابد منه من أجل استمرار التقدم بقوة دفع كافية لما يرمى إليه جورباتشوف .

جورجيــا

كان إدوارد شيفرنادزة وزير خارجية الاتحاد السوفييتى يستعد للسفر الى ألمانيا الغربية ، عندما صدرت له التعليمات بالغاء رحلته على الفور والتوجه الى جورجيا باعتبارها جمهوريته التى ينتمى إليها ، وباعتبار الرجل سكرتيراً أول للحزب الشيوعى فيها .

وخطورة ما جرى فى جورجيا أنه لأول مرة تطرح قضية الاستقلال التام عن اتحاد الجمهوريات السوفييتية ، وجورجيا ليست من المناطق النائية أو البعيدة أو الحدودية . بل هى فى قلب البلاد ، وهى كما يقال أيضًا تعد معدة الاتحاد السوفييتى .

ومنذ مجئ جورباتشوف وهناك نعرات قومية تثور هنا وهناك ، لكنها كلها كانت تدور حول شكل من أشكال الحكم الذاتى ، فى إطار الدولة ككل ، وكان البعض يرى أن زلزال « أرمينيا » قد أثبت لهذه القوميات أنه لا مفر من الارتباط بالدولة الأم ، وان هـذا العصر لم يعـد يعرف الكيانات الصغيرة ولابد من دول كبرى، حتى تكون هناك قدرة على مواجهة ظروف الحياة الصعبة ، ولكن يبدو أن هذا الكلام فيه من التفاؤل ، القدر الكبير الذى ربما يتفوق على حقائق الواقع .

والاتحاد السوفييتى ليس دولة ، ولا مجرد تجمع من عدد من الجمهوريات، ولكنه كشكول كبير ورحب ومتسع ، فيه العديد من القوميات واللهجات والأديان

والأمزجة . يبدأ من المزاج الأوروبى فى غرب البلاد ، ويصل الى الروح الاسلامية ، والى أجواء شرق شمال آسيا فى بعض الأحيان ، من ناحية الطقس أو المناخ فإن الأمور تبدأ من حرارة منطقة الشرق الأوسط ، وتصل الى ثلوج سيبيريا .

والدولة القوية كانت هى صمام الأمان الأساسى لهذا الكشكول الكبير ، وجو الحريات الذى منحه جورباتشوف فتح الباب الذى أغلق منذ زمان ستالين على مصراعيه ، واستمرار فتحه قد يؤدى الى تقويض فكرة الاتحاد السوفييتى من الأساس .

ميخائيل جورباتشوف ، قال بحزم بعد أحداث جورجيا أنه لابد من التفرقة التامة بين مطلب إعادة صياغة علاقات القوميات المختلفة فى الاتحاد السوفييتى ، وهو مطلب مشروع ولابد من النظر فيه ، وبين عملية تقويض الأساس الجوهرى الذى قام عليه الاتحاد السوفييتى ، وأى محاولة فى هذا الاتجاه ستقابل بكل قوة .

لكن من الصعب أن يبقى الموقف كله فى دائرة الفعل ورد الفعل فقط ، بمعنى أن يتم الانتظار لحدوث حادث ما ، فى أى من هذه الجمهوريات ، ثم مواجهته سواء على الصعيد الأمنى أو من خلال المواجهة السياسية ، ولابد من مواجهة شاملة ، تسعى الى مكان القضية ولا تنتظر انفجارها من أجل بقاء واستمرار الاتحاد السوفييتى مستقبلاً .

الفساد

والقول إن الفساد هو الخطر الخامس فيه قدر من عدم الدقة . فالفساد جزء من حالة من الجرائم العامة التى لم يكن لها وجود من قبل فى هذه البلاد

التى تميزت منذ الثورة الكبرى بقبضة قوية لجهاز الحكم تصل هذه القبضة الى أصغر التفاصيل فى البلاد .

وسواء كان الفساد أو كانت الجريمة ، فإنها تجعل المواطن العادى يقول فى بعض الأحيان أن زمن ستالين بكل عيوبه فى مسألة الحريات كان يوفر الاحتياجات الأساسية ويضمن وصولها الى الناس .

وربما كان هذا الفساد موجوداً من قبل ، وبنفس القدر ولكنه لم يكن يصل الى الناس ، وقبل زمان جورباتشوف لم يكن مسموحاً حتى بنشر الجرائم التى تحدث فى البلاد . والبعض يرى أن الفساد أقل مما يكتب عنه . ويقولون إن الإعلام الغربى يضخم كثيراً من حالات الفساد ومن الجرائم من باب إظهار أن التجربة الاشتراكية وصلت الى طريق مسدود ، فى حين أن المجتمع الرأسمالى يبدو مزدهراً ومستمراً ومتقدماً .

ولكن ثمة دراسة قام بها الحقوقيون السوفييت على ٥٠٠ قضية من القضايا المنظورة فى المحاكم . يؤكدون ازدياد عدد الجرائم بصورة متنامية ، خاصة تلك التى يشترك فيها رؤساء المؤسسات وهيئات التفتيش ورؤساء المنظمات الاجتماعية .

وقد انتشرت ظواهر كانت من قبل جزءاً من الواقع الرأسمالى فقط ، مثل الدعارة والبغاء ، فقد نشرت الصحف السوفييتية نفسها أن دخل العاهرة السنوى – التى من صفوة العاهرات – يصل الى ٣٠ ألف روبل فى السنة ، وأنها تحصل لنفسها على نصف هذا المبلغ فقط ، فى حين أن الباقى يذهب الى البوابين والأطباء والبلطجية .

وأن من يتعامل فى سوق العملة يتقاضى أحيانًا ٢٠ ألف روبل مرة واحدة، فى نقل العملة من مكان الى آخر ، ومن تاجر الى سواه . بل إن بنك الدولة ووزارة الداخلية قد أجريا معًا مناقشات مفتوحة حول موضوع تجارة العملة فاتضح من هذه المناقشات أن ٥٪ من الأموال التى تتحرك فى البلاد إنما يتم تداولها فى السوق السوداء .

والسبب الجوهرى فى كل هذا الخلل إنما يعود إلى أن الرغبة فى الحصول على الأموال ، تبدو الآن أكثر من أى وقت مضى ، ذلك أن التطلعات الاستهلاكية كثيرة ، وقد فتحت عن آخرها .

وإن كانت هناك محاولات للحد من هذا الفساد ، وبالنسبة للمحلات التى كانت تخصص من قبل لشراء القيادات السياسية الحزبية ، وهى محلات فيها كل شئ ، والبيع فيها بموجب كوبونات من الحزب . هذه المحلات الخاصة قد جرى اختصارها أخيرًا - ولأول مرة - حيث أصبحت مقصورة على الكادر القيادى الحزبى فقط . أما القيادات المتوسطة فلم يعد من حقها الشراء منها ، وربما كان ذلك مقدمة لإلغاء مثل هذه المحلات من الأساس .

إنجازات

من يقل إن الصورة كلها عبارة عن مخاطر ومخاوف يكون مبالغًا وربما متجنيًا ، وقد ذهبت الى الاتحاد السوفييتى ومنذ أن قرأت كتاب جورباتشوف لى الكثير من التحفظات الشخصية على التجربة كلها . كنت أرى ومازلت ، أن الأمر هو تحول جوهرى على النهج الاشتراكى ، وتطوير ليس من داخل التجربة . ولكن على أساس الأخذ من النقيض الآخر ، أقصد من التجربة الرأسمالية ، التى لا تبدو لديها أية نوايا للأخذ من التجربة الاشتراكية بنفس القدر أو باقل منه .

لكن رؤية الأمر على الطبيعة أكدت لى أن ثمة إنجازات فى الأمر .

الديمقراطية هى الإنجاز الأول ، وإن كان يشوبها عيبان : **الأول** : إنها موجهة للغرب ، لتحسين الصورة التقليدية القديمة المعروفة عن بلاد السوفييت ، **والثانى** : انها – حتى الآن – ديمقراطية التعبير أكثر منها ديمقراطية المشاركة ، بمعنى أنها ديمقراطية تتجلى فى حرية الكلام والكتابة أكثر منها مشاركة فى صياغة مقدرات البلاد .

ولكن حتى فى إطار هذه النظرة ، يمكن القول إن انتخابات جرت فعلاً ، وأن هناك ناجحين وهناك من فشل فى النجاح وبعض الذين فشلوا من القيادات الحزبية الذين هيمنوا على مقادير البلاد من قبل ، وأن بعض الأعمال التى كانت ممنوعة من النشر تصدر الآن ، وبعض الأفلام التى كانت من المحرمات تعرض ، وأنه يجرى البحث عن إيجاد شكل ما يعمل من خلاله..الذين يختلفون مع الحزب ، على شكل منابر أو تيارات داخل نفس الحزب وهو ما قد يؤدى الى وجود أحزاب أخرى غير صيغة الحزب الواحد .

كذلك فإن الصحف السوفييتية تقطع المسافة الآن من كونها كانت مجرد نشرات دعائية لا تبقى فى يد القارئ سوى دقائق معدودة ، الى أن تصبح صحافة حقيقية ، تناقش وتختلف وتشتبك مع الواقع فى علاقات ساخنة وحية ، كذلك فقد تنوعت الصحف والمجلات بصورة لافتة للنظر .

عند الحديث عن الدين لابد من القول إنه تم فى عام ١٩٨٨ تسجيل ١٦١٠ رابطات دينية جديدة ، فى حين أن عام ١٩٨٧ شهد تسجيل ١٠٤ رابطات فقط والروابط التى سجلت هى : ١٢٤٤ رابطة أرثوذكسية روسية ، ٧٢ رابطة، أرثوذكسية جورجية ، ١٧ رابطة كاثوليكية ، ٤٨ رابطة إسلامية ، و ٣٦ رابطة

أخرى . وتمت الموافقة على بناء ١٤٣ دارًا للعبادة . وتم وضع ٩٣٧ مبنى تحت تصرف المؤمنين ، وتوجد ١٦ مدرسة ثانوية دينية يتعلم فيها ٢٨٨٢ طالبًا .

وفى مارس الماضى عقد المؤتمر الرابع لمسلمى آسيا الوسطى فى طشقند وكانت مطالبهم وملاحظاتهم هى : إقامة مساجد جديدة ، نقص نسخ القرآن الكريم ، نقص الكتب الدينية بوجه عام .

وقد تمت إعادة مصحف عثمان للمسلمين وكان محفوظًا من قبل فى المتحف ، وفى فبراير الماضى تم افتتاح ٢٥ مسجداً فى أوزبكستان و ٦ فى طاجيكستان و ٣ فى تركمانيا . ومن المتوقع أن تصدر طبعة جديدة من القرآن الكريم من ٥٠ ألف نسخة .

والمسلمون يرون فيما يجرى فى الاتحاد السوفييتى أنه إجراءات تطهيرية، وأنهم سعداء بالموقف الجديد من إدمان الخمور والمخدرات ومحاولة الحد منهما ، والحرب على الرياء والطمع فى المال والإقبال على الرشاوى . ويقولون إنهم أعلنوا قبل جورباتشوف حربًا على هذه الأمور وكانوا يتصورون أنهم وحدهم فى الميدان يكافحون ، إلى أن أصبح هناك كفاح عام فى نفس الاتجاه .

وإن كان الموقف من الدين يعد من الايجابيات ، إلا أنه قد يحمل فى القريب بعض السلبيات ، فالملاحظ فى موسكو أن كل الفتيات يعلقن الصلبان فى صدورهن بصورة تذكر بما كان يجرى فى مصر من أوائل السبعينات عند مقدمات الحجاب ، ولم ندرك ذلك جيداً فى هذا الوقت . كذلك فإن مظاهر التردد على الكنائس فيها بعض المبالغات أحيانًا .

حيث شاهدت شابة صغيرة ، تقف على أبواب كنيسة فى قلب موسكو ، وبالقرب من الميدان الأحمر حيث ضريح لينين ، وقد ركعت على ركبتيها على

أبواب الكنيسة .. وحملت ترابها ورسمت بالتراب علامة الصليب على جبهتها وكتفيها ، ثم دخلت الكنيسة .

بقى أن أقول إن كل ما قلته عن تجربة السوفييت هو من قبيل الكلام الذى يقال من داخل البيت نفسه ، لقد كان من أحلام عمرى كله أن أرى ذات يوم أول وطن يطبق الاشتراكية ، الحلم الذى تربينا عليه . وكل حلمى الآن ألا يصبح الوطن الأول للاشتراكية هو فى نفس الوقت وطنها الأخير .. ومن أجلى يبقى الحلم ، وأن يمتد ويتفرع ، كان لابد من كتابة كل ما كتبته ، لسبب آخر يتصل باستمرار وبقاء وازدهار وتقدم التجربة السوفييتية .. ذلك أن استمرار التجربة واحد من أهم أحلام العمر كله .

نجمة داود تظهر
فى سـماء موسكو

أعرف جيداً ، أننا ، مصريين كنا أو عرباً ، آخر من يحق له انتقاد الاتحاد السوفييتى ، بشأن أى خطوات يتخذها فى اتجاه إقامة علاقات مع العدو الصهيونى . فمصر مجروحة منذ أن اغتصب السادات إرادتها ووقع على اتفاقيات « كامب ديفيد » . و « كامب ديفيد » التى كانت ساداتية فقط . تقف الآن على أبواب القبول العربى .

لدرجة أن الانسان يتوقف فى بعض الأحيان ، فى منتصف المسافة بين الدهشة والذهول وعدم التصديق ، ويتساءل : فيم كانت الغضبة العاتية على السادات والرفض ؟ فالكل يوشك أن يصبح « ساداتاً » آخر ، مع أن ما يفصلنا عن كامب ديفيد الأولى عشر سنوات فقط .

تلك حكاية أخرى ، ولنعد الى موضوعنا ، لقد قاطعنا العدو الصهيونى لأن بيننا وبينه أرضا مغتصبة ، وحقوقا استولى عليها ، وصراع إرادات لم ولن ينتهى أبداً . أما الاتحاد السوفييتى فكانت القطيعة وقوفاً سياسياً منه مع الحق العربى ، وتماشياً مع سياساته المبدئية . ويكفى السوفييت أنه مرت عشر سنوات على علاقات الحكومة المصرية مع العدو الصهيونى ، ومع هذا لم تقم نه وبين « عدونا » هذا حتى الآن .٣علاقات دبلوماسية بي

ولكن فى نفسى مرارة من تلك الاشارات التى تصدر كل يوم من تل أبيب باتجاه موسكو ، والإشارات التى ترد عليها من موسكو الى تل أبيب ، هذه المرارة

لا مفر من أن تبقى فى حدود المرارات الشخصية المشروعة ، التى ربما عبرت عن نفسها بانفجار أو أى شكل آخر . ولكنها لا تصل الى حد اللوم أو الانتقاد أو الإدانة . فجرح كامب ديفيد الذى كان ساداتيًا ، مرشح هذه الأيام لأن يصبح واحدًا من جراح « كل العرب » .

التفرقة واجبة بين أمرين ، **أولهما** : الغزل الجديد والطارئ والمؤلم بين بلاد السوفييت والعدو الصهيونى . وما يمكن أن يسببه من مرارة لآخر أبناء العرب الباقين القائمين على عهد الزمن الذى يوشك أن يصبح ماضيًا تامًا ، خصوصًا أن هذا الغزل ، إختار زمن الانتفاضة الفلسطينية البطلة ، زمن الوضوء بالدم الفلسطينى كل يوم ، لكى يتم فيه ، وحتى الآن ، لا أتصور ، مجرد تصور ، كيف يقبل الرفاق فى موسكو هذا التوقيت لغزلهم مع العصابة التى تحكم تل أبيب .

ثانيهما إنه لابد من التفرقة بين هذا الغزل ، وبين تنامى النفوذ الصهيونى داخل موسكو ، الذى يتعدى الموقف منه الألم والمرارة ، لأن الأمر يتطلب منا وقفة موضوعية مع الحليف السوفييتى ، وهذه الوقفة تنطق من حبناله ، وحرصنا عليه ، وأدركنا أنه الحصن الأول والأخير لنا فى صراع الوجود – وليس صراع الحدود – مع العدو الاسرائيلى .

التنامى الصهيونى فى بلاد السوفييت يشكل خطرين . خطرا يهدد « وطن الاشتراكية الأول » ، وخطرا آخر يهدد وقوفه – الذى كان من حقائق الأشياء – معنا ومع قضايانا العادلة .

أهل موسكو أدرى بشعابها ، ولذلك لن أتحدث كثيرًا عن الخطر الصهيونى الذى يهددهم ، ولكنى سأركز على الخطر الذى يهدد أكبر حلفائنا فى العصر الحديث بالتحديد ، علاقة هذا الحليف العظيم بنا .

علامات الخطر كثيرة ، يعمل الآن المترجم المصرى ، الذى يعيش فى موسكو منذ سنوات ، الدكتور أبو بكر يوسف فى وضع كتاب كبير عن تفاصيل ما يجرى هناك . ولكنى أكتفى بالآتى ، وهو قليل من كثير :

● فى العام الماضى قامت الفنانة السوفييتية « اللابوغاتشوفا » بزيارة اسرائيل ، وأعلنت أنها حضرت لإطفاء ظمأ المحاربين الاسرائيليين فى رسالتهم المقدسة « ضد العرب الفلسطينيين المتوحشين » ، هكذا بالحرف الواحد .

● فى العام الماضى أيضًا ، عندما وجهت الحكومة المصرية الدعوة للشاعر السوفييتى يفجينى يفتشنكو لزيارة مصر ، والمشاركة فى احتفالات نوبل نجيب محفوظ ، خصوصًا أن يفتشنكو زار مصر فى الستينات وألقى أشعاره فيها (*).

اعتذر يفتشنكو عن قبول الدعوة المصرية ، وهذا من حقه ، ولكن ما جرى بعد ذلك ليس من حقه أبداً . فقد سارعت تل أبيب ووجهت إليه الدعوة لزيارة اسرائيل على أن تتم فى نفس الوقت الذى كان من المفروض أن يحضر فيه الى مصر . وقد لبى الدعوة وسافر فعلاً الى تل أبيب ، وإن كان قد قال إنها زيارة « خاصة » وليست رسمية . فالكل يعرف هذه المخارج القانونية والشكلية ، فالزيارة هى الزيارة بصرف النظر عن شتى المسميات .

● وإن كان تصرف يفتشنكو تصرفًا فرديًا وشخصيًا ، فقد جرى فى أبريل الماضى توقيع أول بروتوكول تعاون بين اتحاد الكتاب السوفييت

(*) كثير من المعلومات الأساسية سبق ورودها فى المقال السابق ، وقد تركت المقالين كما هما دون تدخل لسببين : أولهما أن إعادة النشر لا تعطى الحق فى الحذف أو الإضافة ، وثانيهما : أن أهمية وخطورة القضية قد تتطلب التكرار الذى هو مذكر الشطار فى جميع الأحوال والأحيان .

واتحـاد الكتاب العبريين فى اسرائيل ، الذى نص على التعاون والترجمة وتبادل الزيارات، وأهمية هذا البروتوكول وخطورته تأتى من ثلاثة اعتبارات :

١ - أنه وقع قبل وجود علاقات دبلوماسية بين البلدين وربما كان توقيعه سابقة لم تحدث من قبل فى دولة عظمى مثل الاتحاد السوفييتى ، تراعى دائمًا الشكل العام المقبول .

٢ - أن اتحاد الكتاب السوفييت ، نفسه ، لم يجرؤ على اتخاذ نفس الخطوة مع اتحاد كتاب الصين ، مع أن الخلاف السوفييتى - الصينى هو خلاف داخل نفس البيت وتحت نفس سقفه ، ومن داخل نفس العائلة الاشتراكية.

٣ - أن هذا البروتوكول وقع ، فى الوقت الذى وصل فيه قمع الانتفاضة الى أقصى مدى له . وكذلك إبعاد الكتاب التقدميين من الأراضى المحتلة ، وهدم البيوت واغتصاب الأراضى .

بعد التوقيع على البروتوكول ، زار موسكو أول وفد من اتحاد الكتاب العبريين فى إسرائيل ، على أن يقوم وفد سوفييتى برد هذه الزيارة ، وتشترط إسرائيل أن يكون الوفد من كبار الكتاب وليس من كتاب الدرجة الثانية وأن يكون ضمن كتابه « جنكيزاتيماتوف » .

● ثم جرى افتتاح أول مركز ثقافى يهودى فى موسكو ، وقد جرى تمويل إقامة هذا المركز بمنحة مالية مقدمة من اللوبى اليهودى الصهيونى فى الولايات المتحدة الأمريكية [لاحظ الدلالة الخطيرة] ، وعلى الرغم من كل ما قيل، من الجانب السوفييتى من أن هذا المركز هو عبارة عن نشاط ثقافى لا علاقة له بالسياسة ، إلا أنه فى يوم الافتتاح ، ألقيت كلمة موجهة من إسحق شامير رئيس وزراء العدو الصهيونى وهى كلمة سياسية بالدرجة الأولى ، حتى وإن دارت كلها حول أمور ثقافية .

افتتاح هذا المركز دفع الى تعديل القانون السوفييتى الذى كان يمنع تعليم اللغة العبرية بصفة رسمية ، ويعتبر أن النشاط اليهودى هو نشاط معاد لأمن البلاد ، وهذه النصوص تعود الى زمن ستالين .

خلال الجدل الدائر فى بلاد السوفييت ، حول بريسترويكا جورباتشوف ، وما أن تم فتح ملفات ستالين - مرة أخرى - حتى دخل اليهود على الخط ، مذكرين المعاصرين بما جرى فى أيامه ، وفى هذا الباب لديهم الكثير من القصص المؤثرة ، والحكايات المأساوية .

● هذه التطورات ، جعلت اليهود السوفييت واسرائيل ، يتفقان على استراتيجية جديدة ، فبعد أن كانت الهجرة من الاتحاد السوفييتى هى المطلب الأول لهم ، أصبح المطلب الآن هو البقاء فى الاتحاد السوفييتى مع محاولة تعديل وضعهم والحصول على مزايا جديدة ، تمكنهم فى النهاية من أن يصبحوا « لوبى صهيونى جديد » يحاول التأثير على مقدرات الحياة ، وصناعة القرار السياسى فى الاتحاد السوفييتى ، ولم نعد نسمع كلمة واحدة ، الآن ، فى الغرب عن هجرة اليهود السوفييت .

وهكذا بدأت حالة من الغزل بين الكتاب السوفييت وبين تل أبيب خاصة أنه يقال الآن ، إن جائزة نوبل ، كانت تمنح من قبل للكتاب السوفييت المنشقين ، ولكن العامل المؤثر أول الذى سيصبح مؤثراً فى قرارات منح هذه الجائزة الآن ، سيكون الموقف من إسرائيل . وبالتالى انقسم الكتاب السوفييت الى من يغازل الصهيونية ، ومن يقف رافضاً لنفوذها ، وهؤلاء يسمون « الكتاب الوطنيين السوفييت » ، وأصبحت لهم رموز مهمة فى الأدب السوفييتى المعاصر . يقف فى مقدمتهم الروائى السوفييتى - ابن سيبيريا - فالنتين راسبوتين .

هوامش هذا الوضع كثيرة ، منها المقال الذى نشر فى إحدى المجلات السوفييتية يهاجم جمال عبد الناصر ، ويهاجم أحدهم منحه أوسمة بلاد السوفييت ، صحيح أنه أعلن أن المقال لا يمثل الرأى الرسمى لموسكو وأن المجلة ستعالج الأمر فى عددها القادم ، ولكن الجميع فى موسكو يعلمون ويقولون إن عبد الناصر يهاجم باعتباره عدو الصهيونية الأول فى الشرق الأوسط .

ومن يذهب الى أى مكان له علاقة باتحاد الكتاب السوفييت يلاحظ أن أى صور لها علاقة بالنضال الفلسطينى أو الشعراء الفلسطينيين الكبار قد تم رفعها بهدوء من المكاتب ونقلت ، بهدوء أيضًا ، الى صالونات المنازل .

ويلاحظ أيضًا أن الكتاب والباحثين والمترجمين المتعاطفين مع الحق العربى يجدون صعوبة فى الحصول على عضوية اتحاد الكتاب السوفييت ، بسبب سيطرة العناصر الموالية للصهيونية على شئون الاتحاد .

ثم كانت الخطوة الأخيرة ، عندما تحولت موسكو الى مكان لتطبيع العلاقات بين الأدباء والكتاب الاسرائيليين وبين الأدباء الفلسطينيين والعرب .

وكان اميل حبيبى قد حمل للقاهرة هذه الفكرة ، لكى تتم فى مصر ، ولكن مصر العائدة الى جامعة الدول العربية ، اعتذرت ، فتقرر أن تتم فى موسكو .

الفصل الأول من هذه الخطة ، حدث فى عشق أباد ، عاصمة جمهورية تركمانيا ، حيث عقد مؤتمر للمثقفين من آسيا للبحث عن السلام . أخفى السوفييت عن الوفود العربية وجود وفد اسرائيلى مكون من الكاتب العربى : اميل حبيبى ، والكاتب العبرى ناتان زاخ . وحضر من مصر : جمال الغيطانى ، يوسف شاهين ، رشدى أبو الحسن ، سعد الفطاطرى . ومن لبنان : حبيب صادق ، وزينات البيطار . ومن الأردن : خالد محادين . ومن اليمن الشمالى : على حمود وعبد اللطيف الربيع . ومن اليمن الجنوبى : سعد الجناحى .

أى أن الهدف كان اللقاء الاسرائيلى الفلسطينى العربى ، والآخرون مجرد تغطية ، دون وجود تمثيل آسيوى حقيقى . فى ختام المؤتمر اقترح الأدباء العرب وجود فقرة ضد الصهيونية باعتبارها حركة عنصرية . واعترض اميل حبيبى على ذلك وهدد الكاتب الاسرائيلى بالانسحاب ، وأخذ السوفييت جانب الاسرائيليين فتقرر أن ينتهى المؤتمر دون بيان ختامى .

يجرى الآن فى موسكو عمل قوائم بالكتاب السوفييت الذين لهم تحفظ على تنامى اللوبى الصهيونى فى موسكو ، لأن هؤلاء الكتاب يخشون من الاضطهاد ، ويخافون من احتمالات الاغتيال ، وهنا يبدأ الدور ان العربى والفلسطينى ، فى رسم حدود تلك الوقفة ، التى لابد منها ، مع الحليف السوفييتى . ومن الوقوف مع الكتاب السوفييت الذين يعدون الآن خط دفاعنا الأول ، هناك فى موسكو .

١٩٩١

الانهيار

ماذا جرى فى مهرجان موسكو السينمائى الدولى؟!

** أكثر من صديق سوفييتى سألنى:

ـ لماذا جئتم تعرضون حربكم التى دارت فى بر مصر عندنا؟!

لقد حضرتم متأخرين ست سنوات كاملة. فموسكو الآن لا تريد أن تشاهد شيئا عن الصراع الخالد بين الفقراء والأغنياء. بل لاترغب حتى فى سماع كلمة الفقر أصلا.

صديق آخر قال لى إن هذا الفيلم لو عرض قبل البرويسترويكا لحدثت مظاهرة فى موسكو إحتفالا به. ولكن كل ما فى البلاد قد تغير. ليس حول الصراع الطبقى وحروب الفقراء التى يحولها الأغنياء إلى مشاريع استثمارية. فقط. ولكن الموقف من الصراع العربى الإسرائيلى قد تغير من جذوره وأساسه.

بل إنه فى الندوة التى أقيمت لمناقشة الفيلم. سأل رئيس الندوة صلاح أبو سيف مخرج فيلم «المواطن مصرى». ماذا تتوقعون الموقف من هذا الفيلم، بعد أن تم حذف كلمة الاشتراكية من كل القواميس السوفييتية. وبالمناسبة ما رأيكم فيما يجرى فى بلادنا من إجراءات إصلاحية؟

ومنذ أن عرف من برنامج المهرجان أن هناك فيلما سوفييتيا مأخوذا عن قصة لإيتماتوف. قيل على الفور إن الجائزة الرئيسية لابد أن تذهب إليه لأكثر من

سبب. فصاحب القصة من أقرب المثقفين إلى جورباتشوف. ومن أكثرهم حماساً للإصلاحات ذات الطابع الغربى التى تتم.

هذا كله ليس تشكيكا فى قرارات لجنة التحكيم فى مهرجان موسكو. ولكنه يقال على سبيل الإيضاح فقط. وعموما فإن المشاركة فى المهرجانات الدولية ليست بهدف الحصول على الجوائز فقط. ولكن الهدف الأبعد مدى هو التأثير فى الآخرين والاحتكاك بهم. وإظهار المدى الذى وصلت إليه صناعة السينما فى مصر.

قبل أن تعلن جوائز مهرجان موسكو بيوم. كانت معروفة فى أروقة المهرجان. وما عرف هو الذى أعلن فى الحفل الختامى. وكانت الجوائز كالتالى: الجائزة الكبرى للفيلم السوفييتى: الكلب الأبلق الراكض على حافة الماء. مع شهادة تقدير خاصة من لجنة التحكيم.

جائزة أحسن ممثلة حصلت عليها الممثلة الفرنسية ايزابيل هوبير عن قيامها بدور "أمابوفارى" فى رواية فلوبير الشهيرة. وأحسن ممثل حصل عليها مناصفة بطلا الفيلم اليوغسلافى. مع منح شهادة خاصة للفيلم الكندى: «الرقيق جدا» ومنح جائزة مالية قدرها مليون روبيل روسى للفيلم المكسيكى: «العمل المنزلى». لأنه يمثل بداية استئناف الإنتاج السينمائى المكسيكى بعد فترة من التوقف.

كذلك فاز الفيلم الصينى «عرس الفتيات» بجائزة خاصة. وهكذا يكون المهرجان قد كرم ممثلة وممثلين وخمسة أفلام مرة واحدة.

فماذا جرى على مدى أربعة عشر يوما عرضت خلالها أفلام من ٢٢ دولة فى مهرجان موسكو السينمائى الدولى السابع عشر. خاصة أن أمريكا لم تحصل على أى جائزة خلافا لكل توقعات التوازنات السياسية؟!

على بعد أمتار قليلة من الكرملين، أقيم مهرجان موسكو السينمائى الدولى السابع عشر. وفى السنوات السابقة كانت تتوسط أعلام الدول المشاركة فى

المهرجان صورة كبيرة لمؤسس الاتحاد السوفييتى لينين، ولكنها رفعت من مكانها هذا العام، ولم يشاهدها الجمهور سوى فى الفيلم الذى عرض فى حفل الافتتاح عن تاريخ المهرجان القديم.

حفل الافتتاح كان قصيرا، لم تلق فيه أى كلمة رسمية من أى مسئول، ووزير شئون السينما حضر ولكنه لم يتكلم، ولم يوجه ميخائيل جورباتشوف رئيس البلاد ـ كما جرى العرف ـ كلمة إلى المهرجان، تتلى فى حفل الافتتاح.

وألغى الاحتفال التقليدى، الذى كان يقام بعد الافتتاح مباشرة فى مبنى الكرملين واستبدل به حفل استقبال فى مطعم براج، ويبدو أن الهدف من هذه الاجراءات هو إضفاء الطابع غير الرسمى على المهرجان كله، تماشيا مع سياسة الدولة التى تقوم على رفع يدها عن بعض الأنشطة، وهى من مطالب الغرب من القيادة السوفييتية الآن.

وإن كانت موسكو الرسمية قد تراجعت عن الاحتفال، فقد احتل المسرح كله قطار يتحرك ولكن ببطء، والقطار له وجود قوى فى حياة الروس، وكان من المفترض أن يحتل صفحات لا نهاية لها فى كتب الأدب الروسى فى مختلف عصوره، وكل إنسان فى هذه البلاد له تجربة مع القطار، ومقدمة كل العروض كانت عبارة عن لقطات لشارلى شابلن جرى توظيفها بشكل جيد.

غياب النجوم

ولأن مهرجان هذا العام قد تميز بحالة من الفقر الشديد فى حضور نجوم العالم، خاصة أنه يقام وموسكو تحاول جاهدة أن تثبت للدنيا كلها، أنها جزء من العالم الجديد، وأنها فى حالة تعامل مستمر معه.

ومن أجل مواجهة فقر النجوم، جاء الفيلم التسجيلى القصير الذى عرض فى ليلة الافتتاح، لكى يذكر الناس أن هناك نجوما حضروا إلى هذا المهرجان

فى سنوات سابقة. التى يقال عنها فى أدبيات الكتابة عن الاتحاد السوفييتى سنوات الحياة وراء الستار الحديدى.

وعلى الشاشة ، الاسود والأبيض طبعا نشاهد صوفيا لورين، واليزابيث تايلور. ومارشيلو مايستروياتى. حتى رائد الفضاء الشهير: يورى جاجارين. نجد لهم جميعا حضورا فى مهرجانات موسكو السابقة التى أقيمت فى زمن القطيعة مع الغرب .

ولكن الغريب أن المهرجان السابع عشر والمقام تحت شعار مزيد من الاندماج مع الغرب قد شهد كل هذا الفتور فى حضور نجوم سينما اليوم. وبإستثناء النجوم المصريين: عزت العلايلى، صفية العمرى، ونجم العنف الهندى: اميتاب باتشان. فلم يكن هناك من الأسماء التى تخطف البصر من الجماهير أحد يذكر. وإن كانت صوفيا لورين قد حضرت فى اليومين الأخيرين من المهرجان. وقيل إن مادونا اشترطت لكى تحضر مقابلة جورباتشوف. ولأنه اعتذر فهى لم تحضر.

واميتاب باتشان عرض له فى المهرجان أحدث أفلامه . ولكن خارج المسابقة الرسمية . ولباتشان ثلاثة أفلام انتاج مشترك بين الهند والاتحاد السوفييتى. وقد قال فى حفل الافتتاح إنه لايفكر الآن فى تقديم فيلم عن اغتيال راجيف غاندى. خاصة أنه عضو نشط فى حزب المؤتمر.

إن كان عدم حضور النجوم قد عوضه عرض فيلم تسجيلى عن المهرجان. فإن المشكلة الثانية لم تجد من يعوضها وهى: ضعف مستوى الأفلام المعروضة بشكل عام. تلك كانت ملحوظة الجميع بدون استثناء. ما أكثر العادى. وما أقل الباهر والمثير والمتميز ، يحدث هذا فى زمن تقدمت فيه فنون السينما تقدما لم يحدث من قبل.

وسعد الدين وهبة، رئيس اتحاد الفنانين العرب، ورئيس الوفد المصرى فى المهرجان، لديه تفسير لحكاية مستوى الأفلام المعروضة. وهو يرى أن مستوى الافلام التى عرضت فى مهرجانات هذا العام على مستوى العالم كله، كانت ضعيفة عموما . والسبب يعود إلى أنها انتجت تحت ظلال أزمة الخليج الطاحنة، جرى تصويرها والاعداد لها ، والإنفاق عليها ، وحرب الخليج قائمة على قدم وساق وقد أثرت هذه الأزمة بصورة أو بأخرى على كل شئ فى عالم اليوم، والسينما جزء من هذا الكل.

وكان هذا واضحا فى مهرجانات أقيمت قبل مهرجان موسكو السينمائى، خاصة مهرجان "كان" الفرنسى، وإن كان يتمنى أن تفلت الأفلام التى ستعرض فى مهرجان القاهرة السينمائى الدولى فى ديسمبر القادم من هذه الظاهرة، والأمر المطمئن فعلا أن هذه الأفلام يجرى تصويرها فى بلادها الآن، بعد أن انحسرت تماما ، أزمة الخليج وانتهت ظلالها الحزينة.

ولهذا من المتوقع أن تعرض أفلام أفضل فى مهرجانات فينسيا والقاهرة وبرلين .

أولاد الكلاب

كان فيلم الافتتاح سوفييتيا ، وعرضه يعكس معنى مهما فى الاعتزاز بصناعة السينما فى البلد صاحبة المهرجان، وهو فيلم لم يعرض بعد فى بلاد السوفييت ولا حتى فى عروض خاصة، وعادة فإن فيلم الافتتاح يكون خارج المسابقة، لأن مجرد اختياره للعرض فى الافتتاح يعكس حالة التكريم له بصورة غير مباشرة . والفيلم من إخراج الممثل ليونيد فيلاتوف ، الذى يقوم بالإخراج لأول مرة.

وقصة الفيلم تعود إلى حادثة حقيقية وقعت فى هذه البلاد قبل عشر سنوات، أى فى زمن بريجنيف وقد جرت الحادثة فى مسرح "تاجانكا" للدراما والكوميديا، وفى هذا المسرح كان يعمل عدد من ألمع نجوم الدراما فى طول البلاد وعرضها.

وتبدأ أحداث الفيلم عندما يقوم عدد من الموظفين والبيروقراطيين والمسئولين فى الحزب بمطاردة فنانى الفرقة ومنع بعض المسرحيات التى يحاولون تقديمها.

فى أرض الواقع، وبعيدا عن الفيلم، فإن مخرج الفرقة، الذى كان ذائع الصيت، يورى لوبيموف حاول انقاذ الموقف وذلك من خلال رسائل وجهها إلى المكتب السياسى للحزب الشيوعى السوفييتى ورئيس الحكومة، وأمين عام الحزب ولكن هذه الرسائل لم توصله إلى أى نتائج تذكر.

الموقف الحزبى المتعنت من الفرقة كان السبب فى امتناع لوبيموف عن العودة إلى الوطن السوفييتى الذى كان قد تركه فى مهمة رسمية فى إيطاليا للمشاركة فى إخراج واحد من عروضه فى مسرح "لاسكالا".

يقال إن لوبيموف خضع لرغبة زوجته اليهودية وسافر إلى إسرائيل التى استوطنها وحمل هويتها بعد اسقاط الجنسية السوفييتية عنه.

بعد رحيله ظل مسرح "تاجانكا" يتعثر إلى ان عينت الدولة الفنان المعروف نيكولاى جوينيكو ـ وهو ممثل معروف ـ مديرا له، وقد حاول جاهدا أن يوفق بين أوامر الدولة ورغبات أهل الفن من خلال البحث عن الحلول الوسط.

ثم جاءت مقدمات بروسترويكا جورباتشوف مما أدى إلى نجاح الفرقة وخروجها من أزمتها القديمة، الفنان نيكولاى جونينكو يعمل الآن وزير دولة للثقافة وبالتالى فإن الفيلم نوع من النظرة إلى الوراء ولكن فى غضب وتحد.

حدث التباس فى عنوان الفيلم، فالبعض تصور أن أولاد الكلاب هم

الفنانون الخارجون على القوانين سواء فى أسلوب حياتهم اليومية، أو من خلال الرؤى الفنية التى يحاولون تقديمها.

ولكن الأغلبية نظرت إلى أولاد الكلاب بإعتبارهم ممثلى السلطة الحاكمة والحزب، رجال البيروقراطية والدولة، خاصة أن المخرج كان حريصا على أن يقدمهم من خلال إيقاع عسكرى أشبه بتجربة جنود النازية والفاشية فى زمانهما، وكان تعاطف المخرج مع أهل الفن واضحاً ومحدداً وموقفه ضد رجال الدولة واضحا أيضا.

بعد الافتتاح بدقائق كان تليفزيون موسكو يعرض تقييما لفيلم الافتتاح، بعض نقاد السينما السوفييت قالوا إن الفيلم تعرض لمشكلات ليست حيوية ولا جوهرية بالنسبة للواقع السوفييتى الراهن الآن، وأنه يحاول تقليد بعض مشاكل الغرب الآنية، والبعض الآخر من النقاد قالوا إنه فيلم جيد وأن كان لم يحصل على نقطتين من خمس نقاط.

وبعيدا عن خلافات السوفييت المشروعة حول الفيلم فإنه يمثل شيئا متجددا ومدهشا ويعتمد على حركة المجموع بدلا من البطل الفردو، ويقول فى نهايته إنه لا خلاص بالفن وحده أو بالدين وحده، ولكن من خلال الارتباط بقضايا الجماهير.

كلب آخر..

للاتحاد السوفييتى فيلم آخر عرض داخل المسابقة الرسمية وقد شاءت المصادفة أن يكون فى اسمه كلمة كلب أخرى، وإن كان الأمر يبدو مختلفا هذه المرة، وهو الفيلم الذى تحول إلى بطل للمهرجان.

الفيلم مأخوذ عن رواية الكاتب القرغيزى المعروف، والذى

يعد الروائى رقم واحد الآن فى بلاد السوفييت كلها: چينكيز أيتماتوف. والرواية عنوانها طويل: «الكلب الأبلق الراكض على حافة البحر». والرواية عن قبيلة فى قرغيزيا بلد المؤلف الأصلية. يصل تعدادها إلى أربعة آلاف نسمة. لهم لغة خاصة وتقاليد متفردة. ونمط حياة لايمتد إلى ماهو أبعد منهم.

«الكلب الراكض» لاتعد من روايات ايتماتوف الكبيرة فهى لاترقى إلى مستوى «وداعا ياغولسارى» والمعلم الأول. أو جميلة أو شجيرتى فى منديل أحمر التى تعد من كلاسيكيات الأدب السوفييتى فى القرن العشرين. والأقرب إلى الدقة أنها قصة طويلة.

النص الروائى يقدمه المؤلف من خلال حادث محدد. ألا وهو تعليم الطفل كيرسيك كيفية الصيد فى البحار العالية بالقرب من الكلب الابلق. والكلب الابلق اسم جبل تعيش القبيلة بالقرب منه. والرحلة بالقارب يقوم بها عجوز معمر هو أورغان ومعه صيادان أحدهما والد الطفل هما: امرايين ومنغلون. والنص الروائى يعتمد على الحكى والقص فقط. وعندما يعود الطفل بمفرده بعد انتحار الثلاثة فى البحر بعد عاصفة رهيبة نكتشف أن هناك ظلال تأثر برواية هيمنجواى المعروفة العجوز والبحر. ولكن هذه المرة يمكن القول: "الطفل والبحر".

الفيلم السينمائى أخرجه مخرج ارمينى شاب هو: كرين جيفور كيان. وقد وقع فى خطأ التسجيلية دون مبرر، حيث راح يقدم وقائع الميلاد والجنس والموت واعداد الطعام وموقف القبيلة من الخيانة الزوجية، وقد حرص المخرج ـ كما قال فى مؤتمره الصحفى ـ على أن يحضر ممثلون من أبناء المنطقة نفسها بعيداً عن النجوم المعروفين. وأن ينطق الممثلون بنفس لغة هذه القبيلة. ثم تترجم لغتهم إلى الروسية. ومنها إلى لغات العالم بعد ذلك. حتى يكون صادقا وأمينا فى نقل الواقع الذى تتحدث عنه الرواية. بأكبر قدر من الدقة .

كان هناك نص روائى مأخوذ عنه فيلم مثل فرنسا فى المهرجان، هو «مدام بوفارى» أخرجه كلود شابيرول، أحد مخرجى الموجة الجديدة فى السينما الفرنسية أو الموجة التى كانت جديدة، وقد لوحظ التزام المخرج بالنص الروائى وخضوعه التام لرائعة جوستاف فلوبير الشهيرة، لدرجة أن الفيلم يوشك أن يكون محاولة لإعادة قراءة النص الروائى كما جاء فى الكتاب دون أى إضافة أو محاولة إعادة تفسير، وقد قال المخرج فى المؤتمر الصحفى أنه بسبب عظمة الرواية قرر أن يقدمها كما هى، دون أى إضافة من عنده.

انسحابات..

ظلال السياسة كانت هناك طوال أيام المهرجان، وحتى قبل أن يبدأ، فقد إمتنعت الشركات السينمائية الأمريكية عن الاشتراك فى المهرجان، أعلن "جاك فالنتى" رئيس اتحاد المنتجين الأمريكيين عدم المشاركة فى المهرجان وأن السبب فى ذلك إنما يعود إلى أن الموزعين السوفييت قاموا بالاستيلاء على مجموعة كبيرة من الأفلام الأمريكية الحديثة وطرحوها للعرض والبيع فى أسواق الفيديو، دون الرجوع إلى الجانب الأمريكى من أجل الحصول على حق عرض هذه الأفلام.

وكان الأمر قد وصل إلى الذروة عندما عرض التليفزيون السوفييتى فيلم "الرقص مع الذئاب" دون الرجوع لأحد، كان الانسحاب الامريكى مشروطا، بأنه لا مشاركة إلا بعد توقيع اتفاقية أمريكية سوفييتية حول حقوق عرض الأفلام المنتجة فى الدولتين لدى كل دولة أخرى.

وعبر مفاوضات سريعة سبقت الافتتاح، تم الاتفاق على أن تقوم موسكو بشراء بعض الافلام من الشركات الامريكية لعرضها فى بلادها.

وهكذا شاركت أمريكا فى المهرجان، ولكن بعد الافتتاح بيوم واحد، وقيل إنه كانت هناك نية لأن يكون فيلم الافتتاح من إنتاج أمريكى كتعبير عن الزمن الجديد فى موسكو ولكن هذه الأزمة العارضة جعلت الفيلم الامريكى "الأبواب" يصل متأخرا، وحتى يعرض داخل المسابقة كان لابد أن يأخذ مكان الفيلم الاسرائيلى الذى تم سحبه من المسابقة بعد طبع البرنامج والاعلان عن ذلك.

والنسخة التى وصلت إلى المهرجان من الفيلم الامريكى ناطقة باللغة الفرنسية ولايعرف إن كان هذا مقصوداً، حتى تكون واشنطن قد شاركت ولم تشارك فى نفس الوقت. أم لا ؟!

قال لى سعد الدين وهبة رئيس الوفد المصرى حول حكاية الفيلم الإسرائيلى فى المهرجان:

ـ إن الفيلم الاسرائيلى الذى تم سحبه من المهرجان، اسمه «مباراة نهائى الكأس»، والمقصود به كأس العالم، والفيلم من انتاج الحكومة الاسرائيلية ولم يتدخل فى انتاجه أى قطاع خاص.

وبطل الفيلم اسرائيلى يذهب مع ابنه لحضور مباراة نهائى كأس العالم فى أسبانيا، وفى الطريق يقابل شخصا لبنانيا كان قد تعرف عليه فى لبنان، خلال الاحتلال الاسرائيلى لجنوب لبنان، ويتحدثان عن الفدائيين الفلسطينيين بإعتبارهم إرهابيين وكل ما يقال إنما هو ضد العرب والفلسطينيين على إعتبار أنهم ليسوا أصحاب قضية عادلة.

إنها المرة الأولى التى تشارك فيها اسرائيل داخل المسابقة الرسمية فى مهرجان موسكو بعد إجراءات جورباتشوف.

ولأن الفيلم يتناول مسائل سياسية حساسة ـ من وجهة نظر السوفييت ـ

وأن عرضه يمكن ان يزيد من حملة الكراهية ضد العرب فى بلاد السوفييت. ولأن منع عرض الفيلم بقرار سوفييتى خالص يمكن أن يحدث أزمة فى العلاقات بين البلدين ومع الغرب عموما . وكل مايحدث فى بلاد السوفييت الآن هدفه الأساسى هو إرضاء الغرب .

لذلك جرت مفاوضات سرية بين السوفييت والاسرائيليين وخلال هذه المفاوضات تم العثور على فقرة فى قانون المهرجان تقول. إن الفيلم الذى يعرض خلاله، لايمكن عرضه تجاريا إلا بعد فترة طويلة من الوقت. ولأن اسرائيل فى حاجة إلى عرضه تجاريا فى القريب العاجل فقد قررت سحب الفيلم من العرض داخل المسابقة الرسمية. وهكذا تم التوصل إلى حل يرضى جميع الأطراف.

مع أن إدارة المهرجان لديها مبدأ شديد الوضوح فى قواعد المهرجان. تقول إنه لايجوز أن يعرض فى المهرجان أى فيلم يسئ إلى شعب أو دولة أو جماعة فى هذا العالم وكان يجب على السوفييت منع عرض الفيلم استنادا إلى هذه القاعدة التى تعد من القواعد الأساسية فى أى مهرجان للسينما فى عالم اليوم. ولكن هذه المبادئ النظرية أمر. واعتبارات السياسة العملية أمر آخر تماما . وهكذا تم اقناع الاسرائيليين بسحب فيلمهم. لأن مصر مشاركة فى داخل المسابقة. ولأن بعض الدول العربية كانت تعرض أفلامها فى بانوراما الافلام بعيدا عن المسابقة.

سحب الفيلم لا يقلل من أن الوفد الاسرائيلى المشارك فى المهرجان كان من الوفود الكبيرة والتى حظيت بمعاملة خاصة أيضا، فقد شاركت جنوب افريقيا فى المهرجان. وإن كان ذلك لم يتم بصورة رسمية ولم يعرض لها فيلم داخل المسابقة ولكن مجرد عرض مثل هذا الفيلم يعد جديدا تماما بالنسبة للموقف الكلاسيكى السوفييتى من الأوضاع فى جنوب افريقيا .

تعاطف مع الصهيونية

حتى الفيلم الأمريكى «الأبواب» وهو من الأفلام الغنائية الاستعراضية لايخلو من بعض المشاهد لهتلر وخطبه فى زمن صعوده الأول.

لكن الفيلم القادم من استراليا. أى من أبعد مكان فى هذا العالم عنا. كان فيلما مصنوعا من أجل التعاطف مع الصهيونية، والفيلم عنوانه: "الأب" وبطله أب على المعاش يعيش بالقرب من إبنته المتزوجة والتى أنجبت من زواجها هذا طفلا وطفلة هما كل حياة هذا الأب. الذى يعود تدريجيا إلى طفولته الخاصة.

وسط تفاصيل الحياة اليومية الصغيرة يفاجأ الأب بأرملة تدق أبواب حياته وحياة العائلة الصغيرة حاملة معها الدليل على أن الأب خلال الحرب العالمية الثانية شارك فى عمليات الاعدام الجماعى لليهود فى أفران الغاز، والدليل عدد من الصور الفوتوغرافية التقطت للأب خلال عمليات الإبادة.

وتبدأ محاكمة الاب. ولكن الابنة تقرر هجرة أبيها بعد أن تأكدت أنه شارك فى عمليات الإبادة الجماعية لليهود. والفيلم لايقدم أى جديد فى هذه الدراما المعادة. والتى شاهدناها من قبل أكثر من مرة. سوى الأداء الجيد لدور الأب وكل إنسان ضد إبادة أى انسان آخر بصرف النظر عن كونه يهوديا أو غير يهودى، وما قام به هتلر جريمة بكل المقاييس. ولكن استثماره فاق جميع الحدود والاعتبارات.

خصوصا أن هذا لايقدم من خلال ربط الماضى بالحاضر. أى أنه لاينظر إلى ما جرى من الحرب العالمية الثانية. مع مايجرى الآن فى فلسطين المحتلة.

والفيلم الألمانى "ماليريان روبيل" يعزف على نفس النغمة، وهو يقدم صبيا فى السابعة عشرة من عمره. يحاكم فى سجون هتلر ويحكم عليه بالإعدام لأنه وهو من أصل بولندى عندما أخذته قوات هتلر النازية لكى يعمل فى معسكرات العمل

الجماعى. ولأنه كان يريد العودة إلى أهله فادعى المرض. وعندما رفضوا إعادته إلى والده ووالدته أحرق بعض القش فى المعسكر الذى يجبر على العمل فيه.

ورغم أنه قام باطفاء الحريق بنفسه. إلا أنه استمر يعمل فى معسكرات أشد قسوة حتى قدم إلى المحاكمة وجاء الحكم عليه بالاعدام شنقا وينتهى الفيلم والصبى على أبواب غرفة الإعدام. بعد منولوج طويل. يتحدث فيه عن أهمية أن يعيش حتى سن الأربعين على الأقل ـ لأنه فى السابعة عشرة من عمره. ولم يعش حياته أبدا.

وقد بكى المشاهدون من شدة التأثر، وهو البكاء الذى لم يحدث سوى مع مشهد النهاية مع الفنان عزت العلايلى فى فيلم "المواطن مصرى".

ورغم أن الفيلم لايجزم إن كان الصبى يهوديا. إلا أن الأداء الجيد والعناية بتفاصيل هذه المرحلة البعيدة من التاريخ الألمانى. وملامح وجه الصبى. قد خلق حالة من التعاطف مع الصبى. وحالة البكاء الجماعى فى صالة السينما. أنبتت إنطباعا أوليا يرقى إلى حدود اليقين أن هذا الصبى جرى له كل ما جرى لأنه يهودى. وهكذا صب الفيلم فى نفس هذا الاتجاه المتعاطف مع الصهيونية دون أى تفرقة ما بين اليهودية كدين. والصهيونية كممارسة عنصرية يرفضها العالم كله. أو على الأقل من المفروض أن يكون هذا هو موقفه منها.

الحضور المصرى

تشارك مصر لأول مرة، داخل المسابقة الرسمية للمهرجان وقد شاركت مصر من قبل ولكن بعيدا عن المسابقة الرسمية سنة ١٩٨٧، شاركت مصر بفيلم "زوجة رجل مهم" لمحمد خان وسنة ١٩٨٥ شاركت بفيلم "الزمار"، وكان الحضور جيدا وكثيفا.

ولكن رغم مشاركة مصر هذا العام داخل المسابقة، وكانت المشاركة العربية الوحيدة، إلا أن الحضور المصرى كان أقل من السنوات السابقة.

داخل المسابقة كان هناك فيلم "المواطن مصرى"، الذى تنافس مع أفلام من ٢٢ دولة من معظم دول العالم، أمريكا، فرنسا، استراليا، المجر، أسبانيا، المكسيك، يوغوسلافيا.

وقد سافر مع الفيلم، علاوة على بطليه: مخرجه صلاح أبو سيف، ومنتجه: حسين القللا. وقد تحول عرض الفيلم فى اليوم الثانى من أيام المهرجان الاحد عشر إلى مظاهرة عربية فى قلب موسكو، كان هناك مندوب جامعة الدول العربية فى موسكو، وسفير فلسطين ومعظم أبناء الجالية العربية والمصرية، إلى جانب جمهور المهرجان ولجنة التحكيم.

خارج المسابقة تم عرض فيلم "سمع هس"، وتقرر عرضه فى دار سينما كوزموس، أى الفضاء بالروسية. لكن عندما ذهب السفير المصرى فى موسكو: أحمد ماهر السيد إلى الدار فى وقت عرض الفيلم، وذهب سفير فلسطين الشاب فى موسكو نبيل عمرو وعدد كبير من المشاهدين المصريين والعرب فوجئ الجميع بأن الدار تعرض فيلما اسرائيليا بدلا من المصرى.

وبعد الاحتجاج على إدارة المهرجان قيل إن السبب فى هذا الخطأ غير المقصود هو الترجمة من الروسية إلى الانجليزية لأن فيلم "سمع هس" عرض فى نفس الوقت فى دار سينما قرغيزيا، وإن كانت هذه الدار ذات مستوى أقل من السينما الأولى.

ولايعرف إن كان السبب هو قضية الترجمة، أو أن الأمر مقصود، أو أن الحكاية لاتعدو ماهو أبعد من فوضى المهرجان الشاملة، حيث إنه من الأمور

المؤكدة أن المهرجان كان يعانى من حالة فوضى شاملة وعدم التنظيم سواء فى نظام العروض أو ضيافة الوفود أو انتقالاتهم.

والمهرجان نفسه يقام فى ظل ظروف صعبة. فحتى وقت قريب لم تكن قد تقرر إقامة المهرجان، الذى يقام كل عامين بالتناوب مع مهرجان كارلوفيفارى، وفى موسكو كان اتحاد السينمائيين قد جرى تغييره والرئيس الجديد يعيش فى جمهورية قرغيزيا معظم أوقات السنة.

كان هناك حضور عربى آخر فى المهرجان من سوريا، عرض فيلمان أولهما: كفرون. والثانى الطحالب سيناريو وإخراج: ريمون بطرس. وهو من انتاج مؤسسة السينما السورية، ومن المغرب جاء فيلم سهيل بن بركة "قصة ٣ ملوك" والفيلم انتاج مغربى - روسى، فرنسى. أسبانى. إيطالى مشترك.

الوفد المصرى المشارك فى المهرجان وقع عددا من الاتفاقيات. أولاها: الاتفاق على تجديد الاتفاقية الموقعة بين مهرجانى موسكو والقاهرة السينمائيين. بشأن تبادل الوفود والمعلومات عن الأفلام والاشتراك فى اختيار الأفلام والاتفاقية كانت سارية لمدة عامين فقط وحققت نتائج إيجابية كثيرة. وانتهت. وتم تجديدها. ومع التجديد ينضم إليها مهرجان طشقند السينمائى الذى كان قد توقف فى الأعوام الثلاثة الماضية بسبب الصعوبات العامة التى كانت تواجه الاتحاد السوفييتى ولكن تقرر عودته إبتداء من أكتوبر ١٩٩٢ وكذلك إضافة مهرجان سينما الطفل المصرى إلى الاتفاقية.

* * *

إلغاء الحــزب الشيوعى...
ورحــيل لينين عن
الميدان الأحمـــر..!!

حتى الآن لايزال الاتحاد السوفييتي مرسوما على الخريطة ومازالت موسكو هي العاصمة الكبرى، ومازال هناك شعب يسمى الشعب السوفييتي.

ولكن كل ماعدا ذلك قد تغير من أساسه. إبتداء من السلطة حتى تفاصيل الحياة اليومية. من قبل كانت السلطة مركزة في اللجنة المركزية للحزب. ولكنها انتقلت منها إلى رئاسة الدولة ومجلس السوفيات الأعلى. والثلاث موجودة في مبنى الكرملين نفسه.

ومع هذا فإن القرارات المهمة والمصيرية إنما تتخذ في إحدى ضواحي موسكو السكنية، وسط الغابات الكثيفة الخضرة، ضاحية: "توفو أوغاريفو".

حتى المكتب رقم واحد في الكرملين الذي كان يخصص للأمين الأول للجنة المركزية. هذا المكتب تخلى عنه بهدوء وبساطة جورباتشوف لبوريس يلتسين بعد فوزه في الانتخابات وقيل إن جورباتشوف له مكاتب أخرى بعدد مناصبه.

فماذا يجري بالتحديد في بلاد السوفييت؟!

منذ اللحظة الأولى تهاجم حواسك، كل علامات التغيير. تغيير يتحدى حتى قدرتك على الاستيعاب. في مطار موسكو. تحاول إحضار عربة تحمل حقائبك. تفاجأ أن العربة موجودة. ولكن من أجل الحصول عليها لابد أن تدفع روبلين. في مكتب مختص. وتحصل على إيصال تتسلم بموجبه عربة. وقبل أن تطل الدهشة من عينيك. يقول لك من يقف في استقبالك: المهم أن إيجار العربة لايدفع بالدولار لأن ذلك هو التغيير القادم، والذي لابد منه.

تخرج من المطار. تهب على أعصاب عينيك أحدث أنواع السيارات الغربية، التي كانت نادرة الوجود من قبل. والسيارة الروسية الصنع، التي كانت مثاراً للاعتزاز الوطني. لايستعملها إلا المضطر والذي لايملك خياراً آخر.

وسواء سمعت أو رأيت أو أحسست. فإن كل مايجرى حولك يقول لك أن الأمور تندفع فى اتجاه غريب، أنه لاتوجد قوة على الأرض قادرة على وقف الاندفاع، وإن عجلة التاريخ لن تعود فى هذه البلاد إلى الوراء أبد. مهما حدث وجرى، وأن البلاد تمر بحالة ركض باتجاه الكارثة أو الخلاص. وإن كانت الكارثة هى المؤكدة.

وأصل المشكلة وجوهرها أن جورباتشوف أعلن سياسة إعادة البناء. وبعدها أطلق حرية الكلام للجميع. ولكن ما جرى فى الشارع أن كل الناس أقبلت على حرية الكلام بقوة. فى حين لم يذهب أحد إلى العمل . بنفس القدر من الحماس...

فى بلاد السوفييت الآن الكل يتكلم. مع أنه لا أحد يستمع إلى مايقال. ومن يكتب يكتب. وفى كل يوم تصدر آلاف الكتب والصحف والمجلات. التى تصدر بكل اللغات. أما عند العمل فلا أحد يعمل. إن الجميع فى انتظار معجزة قد يأتى بها جورباتشوف .

ثم أنه حدثت مقارنة ضخمة بين سهولة هدم القديم الذى كان، ولكن عند التفكير فى البناء اكتشف الجميع صعوبة وربما استحالة بناء الجديد. وحتى بناء الجديد إنما يتم باستخدام مفردات من الواقع القديم الذى يبيته الجميع الآن. كل هذا يتم فى دولة عبارة عن موزاييك من القوميات والجنسيات واللهجات. وفى بلاد عاشت سبعين سنة على أنها ند للغرب. واستيقظت ذات صباح وإذا بقادتها يتحدثون عن ديونها. بل ويطلبون من صندوق النقد الدولى قبول الدولة العظمى السابقة عضوا به..

الحـــزب...

فى بلاد السوفييت توقعات كثيرة لما قد يجرى فى الغد. وهم يقولون إن مؤتمر الحزب الشيوعى السوفييتى، الذى سيعقد فى نوفمبر القادم سيشهد تغييرات ما كان أحد يجرؤ على مجرد التنبؤ بها، لأول مرة سيجرى تغيير اسمه، سيتم شطب كلمة الشيوعية من اسمه. وسيصبح الاسم الجديد: «حزب التوجه الاشتراكى».

التغيير الذى سيتم داخل الحزب سيكون بإتجاه الديمقراطية على الطريقة الغربية. أى الديمقراطية السياسية. مع تقليص التوجه الاشتراكى إلى أقل درجة ممكنة. المتشائمون من أهل الحرس القديم يقولون من الآن. إن جورباتشوف إن نجح فى تغيير اسم الحزب. سواء بموجب إستفتاء أو بدونه. سيعقب ذلك اخراج لينين من المكان الذى يرقد فيه، ودفنه. ومن الآن يتم البحث عن وصية يقال أنه تركها قبل رحيله عن العالم. وفى هذه الوصية يطلب دفنه فى المدينة التى تحمل اسمه "لينينجراد" بجوار المكان الذى دفنت فيه أمه. ولايعرف أحد أين كانت هذه الوصية طوال هذه السنوات؟!

ولكن لسوء حظ لينين. أنه فى الوقت الذى يفكرون فيه بدفنه سيكون للمدينة إسم آخر. هو الاسم القيصرى القديم. "بطرسبرج" والحزب الذى يجرى الآن الاعداد لتغيير اسمه فقد فى السنوات الثلاث الأخيرة ٤ ملايين عضو. وأصبحت عضويته الآن هى نفس العضوية سنة ١٩٧٣ . وقبل التغيير سارع بوريس.. يلتسين وأصدر مرسوما بحظر نشاط الحزب الشيوعى فى الدوائر الحكومية فى كل أنحاء جمهورية روسيا الاتحادية .

هناك توقعات أن يخرج إلى الوجود ثلاثة أحزاب مرة واحدة. فى الخريف القادم: بقايا الحزب الشيوعى بعد التعديلات يقودها جورباتشوف. والحزب الذى يؤسسه الآن إدوارد شيفرنادزه الذى استقال أخيرا من عضوية الحزب الشيوعى ووقع مع مجموعة من الاصلاحيين وثيقة تأسيس حركة إصلاحات ديمقراطية على أن تتحول إلى حزب سياسى فى منتصف سبتمبر القادم.

إن شيفرنادزه يكسر بذلك دائرة المنوعات فى الحزب ويؤسس منذ الثورة البلشفية أول حزب معارض. وهناك حزب ثالث لمجموعات الماركسيين الذين يسمون الآن فى أدبيات موسكو: الحرس القديم. وهم الذين يقفون ضد إجراءات جورباتشوف بقوة. وعلى هامش هذه الاتجاهات الثلاثة ثمة تجمع صغير يطلق على نفسه: أعداء الشيوعية. والحرس القديم يرى أن التطورات القادمة جرى الاتفاق عليها فى لقاء جورباتشوف مع السبعة الكبار فى لندن. حيث أنه كان مطلوبا فى هذا اللقاء إنهاء الحزب الشيوعى السوفييتى تماما. كأنه لم يكن له وجود من قبل فى حياة البلاد.

فى اليوم الثانى لوجودى فى موسكو. ذهبت الى الميدان الأحمر. حيث ضريح لينين. والطابور الطويل الذى كان يقف فى انتظار إلقاء نظرة على لينين تقلص كثيرا. وعندما تقدمت فى هذا الطابور اكتشفت أن الطابور كله لايوجد فيه أحد من أبناء السوفييت وأن معظم الواقفين سياح أتوا من جميع أنحاء العالم. والفراغات فى الطابور أطول من مساحات الناس. وفى داخل الضريح اكتشفت أن المسألة نزعت عنها هالة القداسة القديمة. يمكن للزائر أن يتكلم وربما يضحك وهو فى حضرة لينين، حتى الحراس أصابهم شئ من الكسل والفتور وهم يقومون بعملهم.

وقد رفعت صور لينين من كل المكاتب الحكومية والحزب. إلا فى بعض الحالات النادرة. ومن يحتفظ بهذه الصورة. يقال عنه رجعى أو أصولى وفوق

قباب الكرملين يخفق الآن علم روسيا إلى جانب العلم السوفييتى المعروف، وتلك هى بداية ازدواج السلطة فى هذه البلاد.

والموقف من اتحاد والجمهوريات ليس متفقا عليه. هناك تسع جمهوريات مازالت ترغب فى البقاء متحدة وفى المقابل ست جمهوريات أخرى ترفض الوحدة السياسية. وتوافق فقط على أى اجراءات إقتصادية أخرى مع الجمهوريات الـ ١٥ التى تشكل البلاد.

والرقابة السوفييتية، لديها تعليمات دائمة، أن كل الأمور مباحة ماعدا قضية وحدة الجمهوريات الـ ١٥. فلا يمكن الاقتراب من هذا الموضوع، لا بالتلميح أو التصريح أو أى شكل من أشكال المعالجة.

الــــدولار

قبل أن يتولى جورباتشوف السلطة فى بلاد السوفييت. كان الروبل الروسى يساوى دولارا أمريكيا ونصف الدولار. الآن أسعار الروبل تبدو على النحو التالى: فى البنك الدولار الواحد يساوى سبعة وعشرين روبلا ونصف الروبل. ولكن فى السوق السوداء، والتى تسمى هناك: أسواق الظل. فإن سعر الدولار يبدأ من واحد وثلاثين روبلا. ويصل إلى ٣٥ روبلا للدولار الواحد.

وعندما تطلب أى خدمة من أى مواطن سوفييتى يطلب منك فى المقابل دولارات، وعندما تقول له إنك لاتملك سوى الروبلات يرفض ذلك. لأن الروبل مجرد أوراق لاقيمة لها. أما الدولار فهو عملة سحرية فى موسكو. وعلاوة على الفارق الضخم. فإن السلع التى توجد فيها أزمة لاتباع سوى بالدولار، والمطاعم الفاخرة بالدولار والفنادق التى اشتراها الغرب بالدولار. والتاكسيات الفاخرة بالدولار. وحتى فتيات الليل يرفض التعامل سوى بالدولار فقط.

الأرقام المجردة. تقول عن الوضع الاقتصادى إن الناتج القومى الإجمالى للاتحاد السوفييتى انخفض بنسبة ١٠٪ خلال الأشهر الستة الأولى من سنة ١٩٩١ . كما تقلص الدخل الوطنى بنسبة ١٢ ٪ والانتاج الصناعى بنسبة ٦,٨٪ وهذه الأرقام المخيفة أعلنها فادييم كيربتشنكو رئيس لجنة الاحصاء السوفييتية.

ونفس الأرقام تقول أن التبادل التجارى انخفض خلال نفس الفترة بنسبة ٣٧٪ وتقلص الاستيراد بمعدل ٤٢٪ وهناك توقع أن يزداد تفاقم الأزمة بسبب عجز البلاد عن زيادة الاستيراد بنسبة من ٥٠٪ إلى ١٠٠٪ لسد حاجات السوق الداخلية.

ومن المتوقع أن يصل محصول الحبوب ١٩٥ مليون طن فى مقابل ٢١٨ مليون طن فى العام الماضى. وبسبب تدهور الأوضاع الاقتصادية وتدهور العلاقات بين الجمهوريات زاد العجز فى الموازنة خلال الأشهر الخمسة الأولى من هذه السنة على ٣٩ بليون روبيل، فيما كان مقدرا له أن يبلغ ٢٦,٧ بليون روبيل طوال السنة. وأكدت لجنة الاحصاء أن الديون الداخلية للاتحاد السوفييتى بلغت ٨٠٠ بليون روبيل فى أول يوليو الجارى.

المسئولون السوفييت أبلغوا لقاء الدول السبع الكبرى فى لندن . أخيرا أن موسكو ستنتهى من سيطرتها تماما على الأسعار. بحلول عام ١٩٩٣ . وابتداء من هذا العام ستحدد قوى السوق جميع الأسعار المحلية، وفى عام ١٩٩١ فإن قوى السوق الذى تعتمد على العرض والطلب ستحدد أسعار ٤٠٪ من السلع، وفى سنة ١٩٩٢ ستحدد قوى السوق بعيداً عن الدولة ٧٠٪ من الأسعار. أما فى خلال سنة ١٩٩٣ . فإن كل الأسعار فى جميع أنحاء البلاد ستحدد تلقائيا.

إن من يتجول فى الأسواق سيجد أن المحلات كثيرة، ولكنها خالية من البضاعة خاصة المواد الغذائية، وعندما يعرض أى شئ فإنه يختفى فى دقائق معدودة، ومن يستولى على هذه البضائع إنما يعيد بيعها مرة أخرى فى السوق السوداء بأسعار باهظة، تصل إلى عشرة أضعاف سعرها الأساسى.

فى الشوارع أكشاك جديدة، تسمى "تشاركيات" وهى أقرب إلى القطاع الخاص، وفيها كل شئ، ولكن السعر فيها يعتمد على العرض والطلب، وفارق السعر من كشك إلى الكشك المجاور له يصل إلى الضعف.

وطوال سيرك فى الشارع تجد شبابا يعرضون عليك تغيير العملة علنا، وهم أقرب إلى العصابات التى تعتمد على المغالطة فى العد، وهناك سيدات يقتربن من التسعين من العمر يعرضن عليك البضائع التى لاتوجد فى الأسواق بأسعار خاصة، والطوابير التى تملأ الشوارع ـ ليست الطوابير القديمة على الخبز واللحم، ولكن هناك طوابير جديدة على الآيس كريم، والشيكولاته والسجائر وكل البضائع الغربية، وبالنسبة للزائر، فإن الدلالات يعرضن عليه: الكافيار، السيجار، الفودكا، الفرو، وهى الهدايا التى يرغب فى العودة بها ولكنه لايجدها، وطبعا السعر مرتفع جدا، وفى أغلب الأحيان مطلوب أن يدفع بالدولار.

وللمرة الأولى فى تاريخ الاتحاد السوفييتى، فتحت مكاتب البطالة أبوابها، حيث دخل القانون الخاص بتشغيل السكان إلى خير التنفيذ ابتداء من صباح الاثنين الأول من يوليو الحالى، وهذا القانون الذى صدر فى أبريل الماضى من برلمان روسيا برئاسة يلتسين، يعترف رسميا بالبطالة فى البلاد، حيث لايزال الحق فى الوظيفة من الحقوق التى يضمنها الدستور.

الخبراء يقولون إن عدد العاطلين عن العمل فى كبرى جمهوريات الاتحاد السوفييتى وهى جمهورية روسيا يتجاوز الستة ملايين شاب، وإن الرقم فى كل

أنحاء البلاد يصل إلى خمسة عشر مليونا . فى حين أنه لاتوجد الآن أى فرص حقيقية للعمل. ومن المتوقع عندما يبدأ بيع القطاع العام. ومنشآت الدولة. أن هذا الرقم من العاطلين سيتضاعف أكثر من مرة. ومن الآن هناك عمليات تخريب لبعض وحدات القطاع العام، حتى تصل إلى طريق مسدود ولايكون هناك من حل سوى بيع هذه الوحدات.

والفندق الذى نزلت فيه هذه المرة من فنادق الدرجة الأولى وقد سبق لى النزول فيه. ولكن حالته هذه المرة ساءت لدرجة وجود صراصير وفئران فى الغرف. ومن الواضح أن هذا الاهمال جزء من خطة عامة هدفها بيع هذه المنشآت بأى مبالغ حتى ولو برخص التراب إلى القطاع الخاص .

إســرائيـــل

بعد إقامتى فى الدور الثانى عشر من فندق "راسيا" بيومين. فوجئت بأن بوفيه الدور قد أغلق. وعندما سألت عن السبب قيل لى... إن وفداً سياحياً وصل من إسرائيل. والبوفيه سيغلق تماما لاستخدامات هذا الوفد. وعندما سألت عن قواعد استئجار بوفيه يخدم دوراً كاملا قيل لى إن هذا قرار سياسى.

ولمدة عشرة أيام كان الوفد الاسرائيلى المكون من الحاخامات يعقد لقاءات مع يهود موسكو لشرح الحال فى اسرائيل وقواعد الهجرة الجديدة. حيث إنه مطلوب من اليهودى الروسى أن يحتفظ بكل ممتلكاته فى بلاد السوفييت ومع ذلك يهاجر. ذلك أنه سيصبح من حقه العودة فى أى وقت يشاء.

أما كون اسرائيل تحرز الكثير من التقدم فى موسكو. فهناك جيش جرار من اليهود يعملون لصالح اسرائيل. ولكن المثير للأمر هو ماجرى مع جمهورية أوزبكستان الاسلامية، حيث وجهت اسرائيل الدعوة إلى رئيس هذه الجمهورية لزيارتها وقبل الدعوة فعلا. وسيحدد ميعادها فى القريب العاجل. وسيتم افتتاح

أول خط طيران مباشر بين طشقند عاصمة الجمهورية وتل أبيب مباشرة دون المرور بأى عاصمة أخرى.

وعندما انزعج السفراء العرب فى موسكو من هذه الأخبار، أوفدوا إلى الجمهورية مندوب جامعة الدول العربية فى موسكو، لمحاولة وقف هذه التطورات الخطيرة، وفى عاصمة الجمهورية الاسلامية، قال المسئولون لسفير جامعة الدول العربية، نحن نشكر إسرائيل، إذ لولا الاتفاق معها ما فكرتم فى زيارتنا والتحدث معنا . وعن الاتفاق مع اسرائيل، قال المسئولون إن أى كلام عن المواقف السياسية المبدئية قد انتهى تماما . الآن لدينا زمن جديد لاتحكمه سوى المصالح ومن المتوقع أن نستفيد من السياحة الاسرائيلية فى السنة الأولى من تنفيذ هذا الاتفاق ستة ملايين دولار، نحن فى أمس الحاجة إليها ، ولا نقبل بأقل من ٣ ملايين دولار من مشروعات مقابلة من الدول العربية والاسلامية مجتمعة، حتى نعيد النظر فى الاتفاق الذى ابرم مع اسرائيل، وأى كلام آخر لايوجد من يرغب فى الاستماع إليه .

والنفوذ الاسرائيلى ممتد فى هذه البلاد . بوريس يلتسن أصدر قبل يومين من موعد الانتخابات فى روسيا ، مرسوما بتحويل المقاطعة اليهودية ذات الحكم الذاتى إلى منطقة اقتصادية حرة، تتحول أمام أنظار المحرومين، إلى جمهورية فاضلة على الأرض .

بل إن هناك الآن احتمالا أن يشارك إسرائيلى فى رحلات الفضاء السوفييتية، وهذا الموضوع نوقش فى ندوة علمية أقيمت فى طشقند، والذى طرح الفكرة للنقاش، هو ممثل شركة " فوروم " الاسرائيلية التى أسسها يهود مهاجرون من الاتحاد السوفييتى وحظيت الفكرة بدعم النائب السوفييتى الجنرال فلاديمير جانيكلوف .

هذا وقد قامت شركة فوروم بتوقيع بروتوكول فى هذا الصدد مع مؤسسة انيرغيا وهى الجهة الرئيسية فى الهيئة الفضائية فى الاتحاد السوفييتى.

هناك اقتناع فى موسكو بأن رضاء الغرب عنهم وخاصة أمريكا لابد أن يمر عبر تل ابيب، وأن إسرائيل هى المدخل الوحيد لأمريكا.

الجـرائـم

الفـسـاد هو البطل الأول الآن فى البـلاد. والقـرار الذى أصـدره جورباتشوف أخيرا بتشكيل لجنة للتحقيق فى فضائح بيع الفيللات الحكومية إلى عدد من الوزراء وكبار رجال الدولة يكشف عن بعض جوانب هذا الفساد.

سنوات البيروسترويكا "إعادة البناء" والجلاسنوست "الحديث بصوت عال أو المصارحة شكلت ستارا كثيفا حول الباحثين عن الثروات، وفضيحة الفيللات الحكومية واحدة منها. فقد بيعت هذه الفيللات بأسعار مخفضة تقل عن أسعارها فى الأسواق حوالى مائة مرة، والذين حصلوا على هذه الفيللات كانوا: رئيس الوزراء السابق نيكولاى ريشكوف، ووزير الدفاع الحالى: ديمترى يارزوف، ومستشار الرئيس للشئون العسكرية المارشال: سيرجى آخروميف.

الخطير فى الأمر كله أن هذه التجاوزات كان يمكن أن تؤدى إلى السجن مدى الحياة لمن يقوم بها، لو كان القائم بها شخصا عاديا. ولكن لأن الذى تقوم بها شخصيات كبرى لن يحدث لهم أى شئ على الإطلاق، لدرجة أن الناس تقول: "السلطة فى بلادنا لاتخضع لأى قوانين".

وعام ١٩٨١ صدر قرار سياسى سرى يقضى بأن التغذية المجانية والمساكن والسفر إلى منتجعات الراحة والنقل هى امتيازات تشمل إضافة إلى عضو المكتب السياسى جميع أبنائه وأحفاده بعد وفاته.

وعند رحيل بريجنيف كان هذا القرار يشمل ٢٦٥ من أقاربه يحصلون على هذه المزايا غير العادية. وكل هذا الفساد أتى معه بجرائم غريبة تحدث فى هذه البلاد. لدرجة أن السير فى الليل فى المدن الكبرى لم يعد مأمونا أبدا.

وفى مواجهة البؤس المنظم يوجد فى بلاد الاشتراكية مليونيرات يقال عنهم: سمك القرش. ويقال: القطط السمان. والبشر فى هذا الوطن نوعان: بشر من الرماد والثلج والضباب، أتو إلى هذا العالم من أجل الوقوف فى الطوابير. حتى لو كان من أجل رغيف من الخبز. بل إن الشعار هو: إن شاهدت طابورا فاحصل على مكان لك فيه. ثم اسأل عما يباع بعد أن تقف.

وفى هذه البلاد بشر آخرون يفطرون صباحا بالكافيار ، الذى لاوجود له فى هذه البلاد سوى فى الأسواق السوداء وأسعاره لايقدر عليها سوى المليونيرات فقط ، والمليونيرات الجدد يعيشون وراء ضباب من الشك والشائعات والحكايات.

وانتشار الجرائم تطلب من الدولة خطة لمواجهتها. وعشية العطلة الأسبوعية مساء يوم الجمعة من كل أسبوع. تقوم قوات الشرطة مع القوات المسلحة بالانتشار فى العاصمة. وقد حدثت حالة من الريبة والشك فور أن بدأت القوات المسلحة فى الانتشار خاصة بعد أحداث يوغوسلافيا.

وفى موسكو جريمة منظمة. لاتوجد جريمة واحدة فردية الطابع أو التنفيذ. وأخطر الجرائم هى الابتزاز. خاصة ابتزاز المليونيرات الجدد وتتبع أخبارهم من خلال الصحف والمجلات.

الجرائم الجديدة هى: خطف الأطفال، اغتصاب النساء. استخدام التعذيب بهدف الحصول على المال. ورئيس أى شركة عليه أن يطلب من إحدى

العصابات حمايته نظير مبلغ من المال يدفع كل شهر. وهناك من رفض ذلك وتوجه إلى الشرطة طالبا حمايتها ولكنه ندم بعد ذلك لأن الشرطة لاتوفر حماية لأحد أبدا. بل إن الذين كانوا فى حماية الشرطة توقفت أعمالهم بعد ذلك.

المليونيرات الجدد يدفعون لأى عصابة من العصابات من أجل الحماية. وما يدفعه للعصابة أقل ألف مرة من الذى يدفع للدولة خاصة إذا توقف فى فترة معينة عن الدفع فإن خطر الإبلاغ عن أنشطته التجارية للدولة والحزب وأجهزة الأمن الأخرى يصبح وارداً فى أى لحظة.

والعصابات التى تطارد المليونيرات تجد حالة من التعاطف معها من الناس فى الشارع. ففى زاوية ما من ذهن كل فرد فكرة تقول أن كل ثروة تخفى وراءها جريمة ما. وهذه الفكرة من بقايا الماركسية القديمة، ولذلك فإنه حتى المليونير النظيف يبقى مرفوضا من الناس خاصة أن المواطن العادى يجد صعوبة حتى فى شراء متطلبات حياته العادية ويضطر إلى الاستدانة من أجل شراء زوج من الأحذية.

اتلاف ممتلكات المليونيرات أصبح من الأمور الشائعة مثل كسر السيارة أو خدشها أو إحراق الحديقة المحيطة بالفيلا. والقانون السوفييتى لايعاقب بشدة على إتلاف هذه الأشياء مادام أن الإتلاف لم يقترن بعمليات عنف، فى حين أن إتلاف ممتلكات الدولة تصل عقوبته إلى الإعدام فى كل الأحيان سواء أكان هناك عنف أم لم يكن.

وفى دهاليز موسكو أنباء عن تشكيل قوات انتشار سريع تضم ٢٥٠ ألف شخص وهى تابعة لوزارتى الداخلية والدفاع وجهاز المخابرات. وتتلقى أوامرها من القيادات السياسية .

وخطط استخدام هذه القوات توضع بالتنسيق مع اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، ومن مهماتها الأساسية حماية مباني الحزب ومقرات الحكومة والبرلمان.

هذه القوات محاطة بستار من الكتمان الشديد، مما يجعل من الصعب تحديد الجهات التي تتولى المسئولية عن تصرفاتها وهي تضم شبانا بين ١٨ و٢٣ سنة ينحدرون من أصول روسية وأوكرانية، والغالبية العظمى منهم من سكان الأرياف والمدن الصغيرة. ويقودهم ضباط سبق أن شاركوا في عمليات أفغانستان الحربية.

وهناك مخاوف الآن من أن تتعرض مصالح الاتحاد السوفييتي في الداخل والخارج إلى التخريب، خاصة بعد أن تطابقت مواقفه مع أمريكا والغرب ابتداء من أزمة الخليج، وعلاقاته مع اسرائيل التي تتنامى بسرعة غير عادية.

وفي موسكو يعيدون النظر في قواميس الكلمات، فما كانوا يعتبرونه حتى الأمس القريب حركات تحرير، بدأ ينظر إليه الآن على أنه إرهاب دولي لابد من التصدي له.

وعلاوة على ذلك، هناك قوات جديدة لم يعرفها الواقع من قبل تسمى "أومون" والاسم اختصار لعبارة المليشيات الخاصة، وقد استخدمت هذه القوات لأول مرة سنة ١٩٨٨ وذلك بعد انتشار جرائم من نوع جديد على البلاد، مثل احتجاز الرهائن، والارهاب والسطو المسلح والقتل الجماعي والمسيرات والمظاهرات غير المصرح بها من قبل.

وهذه القوات تشبه الأمن المركزي في مصر ولايزيد عمر من يعمل على ٣٠ سنة إن كان جنديا و٤٠ سنة إن كان ضابطاً، ولاتشترط العضوية الحزبية من أجل الترقي أبدا.

وأى فرد فى هذه القوات يصدر الأوامر لنفسه ذاتيا ويواجه أى موقف ويتصرف بسرعة دون انتظار لتعليمات من أحد. لقد أصبحت هذه القوات خطيرة وخطرها يزداد يوما بعد يوم. وقد يصل خطرها إلى ماهو أبعد من خطر العصابات التى وجدت لكى تحاربها.

ويوجد حوالى ١٠ آلاف فرد فى هذه القوات وإن كان الهدف الرئيسى لها هو الجمهوريات التى تريد الانفصال عن الاتحاد السوفييتى.

المقاومـــة...

مجمل أبناء الشعب السوفييتى يطالب جورباتشوف بالمزيد من الإسراع باعتبار أن فى الأفق خصما غريبا يمكن أن يصلوا إليه ذات يوم. ومنذ أن بدأت المسيرة كان حول جورباتشوف عدد من المثقفين. أهمهم جنكيز ايتماتوف. وفالنتين راسبوتين.

مثقفة سوفييتية قالت لى إن فى البلاد الآن ثلاثة اتحادات كتاب: اتحاد كتاب مركزى للاتحاد السوفييتى. واتحاد كتاب جمهورية روسيا. والاتحاد الذى أسسه يفتشنكو. أخيرا. إنها حالة من الانقسام الحاد التى يمكن أن يحدث فيها أى شئ.

والكتب الرائجة الآن هى كتب الجريمة والجنس والمغامرات. والصحف والمجلات التى يرتفع توزيعها هى التى تهتم بالفضائح الشخصية. بل إن هناك كتبا تؤلف خصيصا من أجل متابعة هذا الجو الجديد.

ويحاول الجميع الدخول على الخط. وأن يحصل على جزء من التورتة السوفييتية. فجامعة باريس تؤسس الآن فرعا لها فى موسكو. وقد تم افتتاح الجامعة الجديدة والتى اسمها جامعة باريس فى منتصف يوليو الحالى وعين عميدا له الكاتب الفرنسى: مارك اليتر.

وكان قد وقع اتفاق مبدئى بين الدولتين فى مايو الماضى. خلال زيارة الرئيس ميتران إلى موسكو وإنشاء هذه الجامعة كان عبارة عن فكرة عبر عنها العالم السوفييتى "اندريه زاخاروف".

ونشاط هذه الجامعة سيركز على العلوم الإنسانية فقط على أن تفتح أبوابها رسميا فى سبتمبر القادم، وقد بلغ عدد الطلاب المسجلين ٦٢٢ طالبا مع أن المقاعد فيها ٦٠٠ مقعد فقط.

هناك حركة مقاومة فى داخل البلاد تتركز أساساً فى المثقفين والمفكرين والكتاب. والقيادات الحزبية للحزب الشيوعى. وفى ظل الوضع الجديد يمكن فى أى نقاش أن يتم وصف جورباتشوف بالخيانة العظمى، مع التنبؤ بأن البلد ستفيق ذات صباح على "بوم" مخيفة. أى على كارثة كبرى.

خلال وجودى فى موسكو وجه جناح الحزب فى موسكو نقدا لاذعا لمسار جورباتشوف وسياساته، وقالوا إن ماينفذه ليس سياسة الحزب ولكنها سياسات تتم باسم الحزب، فهناك مجموعات صغيرة من السياسيين تنفذ القرارات بدون الرجوع إلى الشعب.

هناك انتقاد حاد مع مرارة لآليات نقل المجتمع الغربى إلى البلاد بدون أن يتسم ذلك بالتروى والتبصر، إن مثل هذه الاصلاحات ستؤدى إلى انقسام شديد فى المجتمع السوفييتى.

وبعد أسبوعين فى موسكو أقول: إن التغيير كان لابد منه. ولكن دون أن يكون هذا التغيير بتقليد التجربة الغربية من الألف إلى الياء. إن ما جرى يجعل من الاتحاد السوفييتى وطن الاشتراكية الأول. ويجعل منه فى نفس الوقت وطنها الأخير، وكل هذا جرى على مدى سبعين سنة، مصيره الآن إلى الزوال. هل كان مجرد تجربة؟!

فهل هذا معقول....؟!



وجوه من بلاد السوفييت

١ – أم :

الأم فى كل مكان من الدنيا واحدة ، يشع منها دفء وحنان يتحولان إلى وسادة يريح الانسان المتعب رأسه عليها ، عندما يكون الانسان على سفر ، يزداد إحساسه بكل ما هو إنسانى ، يتصرف باعتباره فقد جذوره ، أرضه ، وأنه معلق فى الهواء .

التى شاهدتها فى المصعد لابد أن تكون أما ، لها أبناء فى مكان ما ، الجو أقرب إلى الحرارة ومع هذا فإن الملابس فوقها طبقات ، إنسانة أخرى تكبس على أنفاسها ، ولكنها من الملابس هذه المرة ، يبدو أنها لا تعرف أن صيف موسكو حقيقة مؤكدة وأن ثلوج الشتاء ذابت منذ فترة وأن شمس موسكو ساطعة الآن .

عندما حاولت أن تضحك شعرت أن وجهها يوشك أن يتكسر إلى ألف قطعة صغيرة ، ما أبعد الفرح عن حياتها ، وجهها قطعة من الكآبة الانسانية ، فوقه بصمات الاحتجاج والعوز وعدم الشبع حتى من الايام والليالى نفسها .

فى اليدين رعشة لا إرادية تشى بمدى تقدم العمر . فى يدها كيس كبير لا أعرف كيف تحمله وهى لا تعرف من كل اللغات سوى الروسية ، ولذلك تتفاهم مع الغرباء ، الذين هم نحن بالإشارات فقط .

فتحت الشنطة المستطيلة التى هى أقرب إلى الجوال وجعلتنى أنظر فى محتوياتها ؛ سيجار وكافيار وشامبانيا روسية الصنع ، أشياء يبحث عنها المسافر إلى هذه البلاد ، وتحتها فرو ، إنها الهدايا التقليدية التى كان يعود بها إلى الأصدقاء والصديقات ، وهى كلها لا وجود لها فى المحلات ، فكل المحلات عبارة عن أرفف فارغة تماما .

نبتت فى الذهن كلمة واحدة « دلالة » . فى بلادنا – ونحن من

العالم الثالث والحمد الله من قبل ومن بعد - الكثيرات منهن يقفن أمام أى مجمع استهلاكى، يبعن السكر والشاى والزيت والارز ، بسعر أخر غير السعر الذى تباع به هذه الاشياء ، فضلا عن عدم وجودها فى تلك المجمعات .

ثمة فارق وحيد ، أن « الدلالة » فى بلادنا تبيع أشياء من ضروريات الحياة اليومية ، وهذه تبيع سلع الرفاهية لنا ، لسبب بسيط أن السكر والزيت والارز لا وجود لها أصلا فى هذه البلاد .. سواء فى المحلات أو مع الدلالات .

كانت تمسك بعلبة الكافيار ، ثم تحدد السعر بحركات يديها ثم تعرض السيجار وهكذا ، أما الفرو فقد كان من الصعب عليها أن تصل إلى حساب الرقم، كان يتعدى الالاف ولها عشرة أصابع فى اليدين فقط ، لو كانت معى آلة حاسبة الكترونية لقدمتها لها على سبيل الهدية . كانت تريد أن تبيع ، وكانت متعبة ، أوشكت على الوقوع أكثر من مرة ، تبدو غير معتادة على استعمال المصعد ، تخاف منه وتخشاه ، وعندما تعبر عن الخوف . تبدو فى وجهها كل طيبة هذا العالم .

مددت يدى إلى جيبى ، أخرجت لها كل ما كان فيه ، وعندما حاولت أن تقدم لى مما تبيعه ، اعتذرت ومشيت وهى تنادى علىّ .

وفى وسط هذا العالم القاسى ، الذى لا يرحم ، لابد أنها قالت عنى إنه مجنون ، نظرت إليها باعتبارها أما ، لم تجد المجتمع الذى يكفل لها شيخوخة مقبولة ، ولكنها لم تستطع أن ترى فىّ صورة ابنها ، الذى لا أعرف إن كان موجودا أم لا .

٢ - مراهقة :

إن إنسانية الإنسان هى الضحية الاولى لكل ما يجرى هناك .

هذه الفتاة يمكن للانسان أن يحبها ، أن يربط مصيره بمصيرها ، من الآن وحتى آخر لحظة فى الحياة . لم تتعد السادسة عشرة بعد ، شكلها الخارجى يقول إنها مراهقة ، كان من المفروض أن تكون فى سريرها الآن ، وحولها أسرة توفر لها كل أشكال الرعاية المطلوبة لمن فى سنها .

لكنها والوقت يقترب من منتصف الليل ، هائمة فى الدور الثانى عشر بأحد فنادق الدرجة الأولى فى موسكو ، تبحث عن رجل ، يدفع لها بالدولار ، وإن لم تجد هذا الرجل ، فلا مانع من دعوة على كأس فى أحد المشارب المتناثرة فى هذه الادوار .

وهذا ما حدث معى .

فيها كل ملامح الجمال الروسى القديم ، تبدو وكأنها خارجة لتوها من صفحات إحدى روايات تولستوى ، أنا كارنينا ليست أجمل منها أبدا ، العود الطويل ، مثل شجر السرو فى ريف بلادى ، عيدان أيام الرضا التى ولت ، والشعر الذى فى أصفرار حقول القمح وقت الحصاد ، وصفاره قريب إلى البياض وشعرها مربوط على شكل ذيل حصان ، يذكرك على الفور بمراهقات عبد الحليم حافظ فى مصر . والعيون فى خضرة البرسيم وقت الربيع .

قالت إنها طالبة فى الجامعة . وحيدة أبويها ، والدها أستاذ جامعى وأمها مهندسة ، يذهبان يومى السبت والاحد من كل أسبوع إلى داتشا ، استراحة فى ضواحى موسكو ، وهى تحضر إلى هنا ، كل واحدة ، تأتى إلى هنا وتجرب حظها فى الليالى المتعبة فى أحضان الرجال الغرباء ، لابد أن لها قصة ما وهذه القصة لابد أن تكون مؤثرة ، هكذا هن جميعا .

لا مانع لديها من قضاء الليل هنا والانصراف فى صباح اليوم التالى

أفضل ويمكنها الذهاب إلى بيتها مع من يشاء ، تجرى وراء حلم البحث عن اللبان والمارلبورو والجنز والويسكى . كل هذه الاشـــياء الجميلة ، لا يمكن شـــراؤها سوى بالدولار ، وإن وجدت لا توجد ســـوى مع السياح الذين هم ســـكان هذه الفنادق . سقف أحلامها يصل إلى حدود الارتباط مع أحد هؤلاء الرجال والسفر معه والهروب من هذه البلاد التى مازال الخروج منها إلى العالم الخارجى ، هو معجزة المعجزات ، والزواج من أجنبى هو قمة هذه المعجزات جميعا .

هى شابة والشباب نوع خاص من أنواع الجمال ، تبدأ بطلب مائتى دولار من الزبون ، ويستمر الفصال حسب قانون العرض والطلب ، وإن كانت ليلة خالية من الرجال ممكن أن تقبل حتى بعشرة دولارات .

المهم عندها . أنها ترتدى حذاء من نوع خاص يمكنها أن تفك كعبه العالى وتضع الدولارات تحت الكعب ، ذلك أنها عند الخروج من الفندق يتم تفتيشها تفتيشا ذاتيا بحثا عن الدولارات ، ليس مهما أى عملات أخرى ، شعار الجميع فتش عن الدولار ، وإن وجدت الدولارات فإن الشعار معروف .. من حضر القسمة لابد وأن يأخذ نصيبه ، وهم أكثر من الهم على القلب . مشرفة الدور ، حارس الباب ، مسئول الامن بالفندق ، حتى سائق التاكسى الذى يوصلها إلى البيت لابد أن يحصل على نصيبه أيضا من الدولارات .

أقصى أمانيها أن تجد كل ليلة زبونا واحدا من الرجال الاغنياء المتقدمين فى العمر، الذين يدفعون ببساطة وبدون فصال ودون أن يسبب لها أى متاعب . ولكن أين هو ؟ !

ذلك أنه فى الفندق الواحد آلاف مثيلاتها .

وفى الفترة الاخيرة بدأ الشبان المرضى بالشذوذ يزاحمونها فى العمل ، أما أحلام الاستقرار والزواج وتكوين أسرة فلم يعد لها وجود فى خيالها . إنها

تعيش حياتها بالتقسيط ليلة بليلة ، ويوما بيوم ، هذا فى أيام الرخاء ، ولكن فى زمن الشدة ساعة بساعة ودقيقة بدقيقة ، قالت لى إنها عندما احتفلت بعيد ميلادها السادس عشر، قالت لها أمها كل سنة وأنت طيبة ، فقالت لها قولى كل ثانية وأنت طيبة .

٣ - جنرال :

كان صدره غابة من النياشين والانواط ، ذكرنى منظره بصورة بريجنيف عندما كنا لا نرى فى الصور سوى هذه الاوسمة التى كان مجرد حملها يتعبه فى سنوات عمره الأخيرة ، كان من الواضح أنه ضابط كبير لأنه تعدى السبعين من العمر ، ومعذرة فأنا لأعرف الرتب ولا الشارات فى الجيش السوفييتى الذى كنا نقول عنه منذ سنوات الطفولة الجيش الاحمر ، والذى كنا نعتبره جيشنا الذى يحارب معاركنا .

قدم حلته العسكرية التى كانت مرقعة فى بعض أماكنها ، جعلنى أخمن أنه ربما كان جنرالا على المعاش ، ينزل فى هذا الفندق كنوع من التكريم له ، تصورت أنه إنسان مزدحم بذكريات معارك الأمس ، وأن وراءه جبالا من الحكايات وأن كتفيه يوشكان أن ينوءا تحت ثقل الأمجاد العسكرية .

نظرت إليه فسعد . اقترب منى فتمنيت أن يعرف لسانه لغة أخرى غير الروسية حتى نتكلم ، خيل إلىّ أنه كان عندنا فى مصر وأنه شاركنا النضال العادل ، الذى تحاول موسكو أن تنساه هذه الايام ، تصورت وهو يقترب منى أن له زوجة من المنصورة أحبها وارتبط بها أيام قواعد الصواريخ ، سام ٦ ، أيام المجد والعمل المشترك والمصير الواحد .

ألقى علىّ تحية الصباح بالانجليزية ، وقبل أى حديث عن الذى مضى فاجأنى بآخر سؤال يخطر على بالى فى مثل هذا الموقف ، سألنى إن كنت

أرغب فى تغيير العملة ، تصورته سيقول إنه دخل المانيا مع طلائع الجيش الاحمر وهزم هتلر ، وأنه كان فى خليج الخنازير ، وأنه ذهب إلى كوبا وانجولا كنت أتصور كل هذا ، فإذا به يأتى إلىّ بحثا عن الدولار الذى قضى عمره كله فى محاربته فى جميع جبهات القتال .

دخلت معه اللعبة ، قلت لأمشى الطريق حتى نهايته ، كان السعر الذى يحاصرنا هو ٢١ روبلاً لكل دولار واحد ، ولكن الرجل قال ٣٥ روبلا للدولار ، أى أن هناك أربعة روبلات فرقاً ، لم تكن لدى رغبة فى التبديل والتغيير ولكن اللعبة استهوتنى .

كان معى طالب مصرى يدرس الاخراج السينمائى فى موسكو قال للجنرال ، إننا موافقون والجنرال قال هيا ومشى امامنا إلى المصعد ، خلق الجنرال لكن يقود الآخرين ، وهاهو يجرى أمامنا سعيا إلى موقعة الدولار .

اصطحبنا الرجل إلى غرفة فى الفندق ، أجرها من أجل أن يقوم بعمله الغريب فيها ، كنت أرغب فى أن أجره إلى الحديث ، ماذا أوصله إلى هنا بالضبط ؟ وهو كان يسأل عن المبلغ الذى أريد تغييره ، هل هو مائة دولار وهل هو ورقة واحدة ؟ أم فكة ؟ هو لا يقبل الا الورق الكبير أبدا خاصة أنه سيعطينى روبلات صحيحة غير مضروبة مثل تلك التى تملأ الاسواق الان ، أنه جنرال ، قال هذا وأشار إلى النياشين والانواط، وأكمل والجنرال لا يمكن أن يكون نصابا .

فعلا إنه الجنرال دولار .

أما الغرفة فقد كانت ميدان حرب ، هناك عدد من الشبان رأيتهم من قبل أكثر من مرة فى الفندق ، معهم الاموال على شكل حزم كبيرة ومعهم زبائن آخرون ، سألت نفسى : وهل هؤلاء جنود عنده فى الوحدة ؟

كان فى الغرفة غيمة من همهمات عملية العد ، وكل صبى مع زبون فى ركن من الغرفة ، وكانت كل الاركان مشغولة ، وعندما لم يجد الجنرال سوى دورة المياه أضاء نورها كى نحولها إلى غرفة لعد الدولارات .

وكانت فرصتنا حتى نعتذر على أمل الحضور مرة أخرى .

دوّن الجنرال رقم الغرفة والطابق فى ورقة أعطاها لنا .

رفع يده لنا بعلامة النصر ونحن ننصرف ..

وسألت نفسى : أى انتصار ياحضرة الجنرال .. !

العشاء الاخير فى موسكو

كنت فى موسكو قبل الانقلاب الأخير ، والانقلاب على الانقلاب بأيام ، عدت من هناك وكتبت ، عدت وقلت لكل من يسألنى ، إن بلاد السوفييت ستصحو ذات صباح على يوم « ضخمة » قد تهز كل أرجاء الدنيا ، بمن فيها وما فيها ، وغيرى أيضا قال هذا بصورة أخرى ، بل أن الحديث عن الانقلاب العسكرى المتوقع سمعته أكثر من مرة فى موسكو ، وربما حدث هذا الانقلاب أكثر من مرة ، قبل أن يجرى فى أرض الواقع من خلال حكايات الناس عنه ، وتوقع حدوثه .

قبل العودة من موسكو ، وفى ليلتى الأخيرة فيها ، التقيت بعدد من الاصدقاء المستشرقين السوفييت ، الذين قضوا بعضا من أزهى سنوات العمر الجميلة فى العواصم العربية ، وكان سؤالى محدداً حول موقف أو مواقف جماعة المثقفين السوفييت من هذا الذى يجرى فى البلاد ، كان سؤالى عن المواقف الحقيقية والفعلية وليس المواقف المعلنة ، باعتبار أن هذا المعلن قد لا يعبر عن الموقف الحقيقى ، سألت ، من هم القريبون من عقل ميخائيل جورباتشوف كنت قد سمعت قبل هذه السهرة كلاما بالتحديد . سمعته فى القاهرة . قبل السفر إلى موسكو فى رحلتى الرابعة والأخيرة . سمعت أن الكاتب الفلانى هو الذى يكتب له خطبه ، وأن الكاتب العلانى هو الذى قام بتدوين الصياغة الأخيرة من كتاب البروسترويكا ، ومع هذا ، ولأننى أعيش فى مدينة من مدن العالم الثالث ، متخمه بالشائعات والاقاويل والحكايات ، التى ربما كانت بعيدة فى معظمها عن الحقيقة، كنت لهذا أرغب فى توثيق ما سمعته ، أو نفيه أو الإضافة إليه أو تعديله .

قيل لى ، والعهدة على الرواه :

– إنه من الصعب الحديث عن موقف واحد لجماعة المثقفين فى بلاد السوفييت الآن ، ذلك كان قائما من قبل حيث كان الجميع يتبنى موقف الدولة والحزب ويجعله موقفه ، وحتى إن عارض البعض الذى يجرى ، فإن هذه

المعارضة تظل سرية وإن خرجت إلى العلن بصورة أو بأخرى يصبح هذا المثقف منشقا ، وعليه الرحيل إلى الغرب لكى يعيش فيه ما بقى له من سنوات العمر .

كل هذا كان فى الماضى واستمر حتى زمن بريجنيف ، أما الآن فالموقف يبدو شديد الاختلاف ، هناك مجموعة من المثقفين يقفون مع جورباتشوف ، ومثلما يحدث فى كل زمان ومكان فى علاقة المثقف بالجالس على كرسى الحكم ، هناك مجموعة تقف ضده ، بالتحديد ضد الاصلاحات التى جاء بها ، وبتحديد أكثر ضد بعض النتائج التى خرجت من تحت معطف هذه الاصلاحات وأن كان الذين وقفوا معه ، والذين تخندقوا تحت كلمة لا . لكل منهم حسبته الخاصة أو العامة .

ومع هذا يجمع بين أبناء « نعم » أنهم من رجال جورباتشوف المثقفين ، ويجمع أيضا بين أنصار « لا » أنهم من أهل بريجنيف ، وهؤلاء الذين ارتبطوا حلم الدولة الكبرى القديمة ، وبعضهم كان جزءا من آلة تعاون الاتحاد السوفييتى مع العالم الثالث . وهؤلاء رأوا بلادهم تعيش على الكفاف فى كل شىء ، لكن حلم العدالة التامة فى توزيع الاعباء والكفاف وأحيانا الفقر أرضاهم كثيرا ، والبعض منهم قال : ربما كان الغد أفضل ، والبعض الآخر كان أكثر واقعية ، فكتب : ربما كان بعد غد أفضل .

لكن هناك فارقا جوهريا بين هؤلاء وأولئك ، رجال بريجنيف عاشوا على المبادىء والأفكار والعقائد ، واعتقدوا أنها وحدها قادرة على تحريك الواقع وتغييره ، أما أهل جورباتشوف فقد نفضوا أياديهم من حكاية العقائد ، ويحاولون إرساء قوانين زمن جديد ، فيه نهاية للعقائد والافكار ، وبداية فترة تحركها المصالح ، أى أنهم حاولوا التخلص من قداسة الماضى وبتر الخيال الانسانى ، الذى تنبت فيه الافكار أولا .

المثقفون اليهود فى بلاد السوفييت نوعان ، نوع معلن ومعروف ، وآخر

مستتر . والمستترون هـم الذين حملوا أسماء روسية ، وأخفوا حقيقتهم عن الجميع ، والمعلنون لم يعلنوا عن أنفسهم سوى فى زمـن جورباتشوف فقط ، والذى أعلنوا عنه ، صهيونيتهم وليس يهوديتهم فقط ، وهؤلاء وأولئك وقفوا بدون حدود مع جورباتشوف وإلى آخر مدى ممكن .

سألت عن سكان العلالى ، عن المثقفين القريبين من دارة صنع القرار ، عن أفواه المثقفين التى هى أقرب الأفواه إلى أذن الرئيس ، وعن الاعين التى تراه ، لأن هؤلاء من المفروض أن يشكلوا صمام أمان للبلاد ، أن يصنعوا ضميرا واقيا حول الرجل ، الذى قد يصيب وقد يخطئ .

وهنا قيل لى الآتى :

منذ البداية وحتى الاسابيع الأخيرة كان الموقف هكذا : اقترب الشاعر رسول حمزا توف لفترة من الوقت ، وكانت له شقة فاخرة فى شارع جوركى وهو من اهم شوارع موسكو (اسم هذا الشارع قد تغير فيما بعد) ثم ابتعد أو أبعد الله أعلم ، هو الآن لا علاقة له بما يجرى أبدا ، إنه فى أبعد نقطة عن الرجل ، ولا يقترب أبدا من أى نقطة أو دائرة من النقاط أو الدوائر المحيطة به .

الروائى القرغيزى جنكيز أيتماتوف (مولود سنة ١٩٢٨ ومن أعماله المعروفة والمترجمة إلى العربية جميلة ، المعلم الاول ، وداعا ياغولسارى ، شجيرتى فى منديل أحمر) كان أيتماتوف رئيسا لاتحاد كتاب قرغيزيا ، الجمهورية التى ينتمى إليها ، وهو اتحاد كتاب صغير وامكانياته محدودة .

أيتماتوف أصبح بعد ذلك عضوا فى مجلس الرئاسة السوفييتى ، أعلى هيئة فى البلاد ، وكان يكتب خطب جورباتشوف علانية ، بمعنى أن هذا كان معروفا وشعر به الجميع ، لأنه كان يستدعى قبل إلقاء أى خطاب بفترة طويلة ، ويذهب إليه مسئولون كبار بأوراق ومعلومات وبيانات سرعان ما تظهر فى الخطاب الذى يلقيه الرئيس بعد ذلك فضلا عن أن الاسلوب هو الرجل .

يقولون إن أيتماتوف فى هذه المرحلة كان يحيا واحدى عينيه على الرئيس والاخرى مفنجلة على آخرها ، على جائزة نوبل للآداب ، كان يقول لمن حوله ، فى السابق كانت جائزة نوبل لا تمنح إلا لمن ينشق ، الآن أنشق الاتحاد السوفييتى كله عن الشيوعية ، فلا بد أن تأتى لموسكو بعد أن أصبحت غربية .

الثابت والمؤكد عن أيتماتوف أنه عندما أعلن منذ أربع سنوات عن فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل ، وكان ايتماتوف فى ذلك اليوم فى الداتشا الخاصة به ، وهى الاستراحة التى لا تمنح سوى لعلية القوم فى ضواحى موسكو ، وكان معه أصدقاؤه فى انتظار النبأ السعيد ، وما أن أعلن عن النبأ حتى أصابت ، ايتماتوف لوثة من الجنون ، فجرى إلى سيارته الواقفة أما الداتشا وأفرغ البنزين من خزان وقودها ، وأشعل به النار فى الداتشا .

قيل له فى العام التالى ، إنه لابد له وأن يزور اسرائيل لأن نوبل تمر عبر تل أبيب ، وهذه الزيارة إن تمت ستكون اللمسة الاخيرة قبل وصول نوبل اليه ، وفى نفس الوقت الذى كان مدعوا فيه لزيارة القاهرة لكى يتسلم جائزة لوتس ، جائزة اتحاد كتاب أسيا وأفريقيا وقدرها ثلاثة آلاف دولار ، ويقدمها الاتحاد السوفييتى ، قرر هو السفر إلى تل أبيب بدلا من القاهرة ، وعندما قابل رئيس الدولة العبرية ، أهداه نسخة من أحدث رواياته الصادرة فى موسكو « النطع » وعندما سئل فى موسكو بعد عودته عن حكاية أهداء الرواية - قال إنه نسى إن كان قد فعل ذلك بالتحديد ، ولكنه من المعتاد أن يهدى المؤلف نسخا من رواياته لمن يقابلونه .

على الرغم من مواقفه القديمة ، مواقف الستينات والسبعينات المؤيدة للحق الفلسطينى فى مواجهة العدوان الاسرائيلى الصهيونى ، الا أن اتيما توف أعلن خلال هذه الزيارة وقوفه مع اسرائيل ، ضد أعدائها الذين هم العرب طبعا وفى القاهرة ، قال سفير الاتحاد السوفييتى ، وهو يعتذر عن عدم حضور ايتما

توف لكى يتسلم الجائزة ، بنفسه إن الرئيس جورباتشوف استدعاه فى آخر لحظة لكى يكتب له خطابا سياسيا طارئا ومفاجئا .

قبل الانقلاب الاخير ، والانقلاب على الانقلاب ببضعه أشهر ، طلب ايتماتوف من صديقه جورباتشوف أن يعينه سفيرا للاتحاد السوفييتى فى لوكسمبرج ، وقد كان وعين وسافر وتسلم عمله هناك ، وقال بعض المثقفين السوفيت أن هناك أكثر من سبب وراء طلب ايتما توف المفاجىء ، الاول : أن مجلس الرئاسة السوفييتى الذى هو عضو فيه كان على وشك أن يحل وأن يلغى تماما .

والثانى:أن يكون ايتما توف بالقرب من حلمه القديم ،أقصد جائزة نوبل .

الذى لم يقله أحد ، يعود إلى سيكولوجية الهروب من السفينة قبل أن تغرق والامبراطورية قبل أن تصبح ذكرى ، وأن هذا الاحساس هو الذى سيطر على الجميع فى الفترة الأخيرة .

يبقى فالنتين راسبوتين

وهو روائى مهم جدا على الخريطة الادبية السوفييتية ، وهو أن كان يحمل اسم الطاغية القيصرى القديم فهو على العكس منه تماما فى كل شىء .

ولأنه غير معروف على نطاق كبير فى وطننا العربى أقول إنه مولود سنة ١٩٢٧ فى قرية أوست أودا بمقاطعة ابركوتسك فى سيبيريا ، المنفى التقليدى لكل الثوار فى روسيا القيصرية ، قضى طفولته فيها وتخرج فى كلية الاداب والتاريخ هناك .. نتاجاته الادبية عبارة عن روايات وقصص .. منها : نقود لماريا - المهلة الاخيرة - الهارب - والحريق ومعظم هذه الاعمال ترجمت إلى العربية ، ضمن ترجمتها إلى لغات أخرى كثيرة .

رواياته تحاول انتقاد الاوضاع فى بلاده ولكن تحت مظلة النظام ، أى أنه لا يحلم لبلاده بنظام آخر ولكن أن يبقى النظام الاشتراكى بعد أن يتخلص من عيوبه وآلامه وأحزانه .

راسبوتين اقترب أيضا من جورباتشوف ، لكن ليس بنفس قدر ايتما توف وأصبح عضوا فى مجلس الرئاسة ، ولكنه فى الفترة الاخيرة ترك موسكو وشقته الفاخرة واستراحته الجميلة وسافر إلى سيبيريا ، وقال إنه معتكف هناك حتى إشعار آخر .

أسأل ، هل كان لهما معا ، ايتما توف وراسبوتين ، موقف واحد ، أى هل كانا فى خندق واحد حول الرئيس ؟ يقولون لى : لا .. بالنسبة للموقف من اسرائيل ايتما توف ذهب إلى هناك ، ولكن راسبوتين يرفض حتى مجرد التعامل مع اسرائيل حتى تقوم دولة فلسطينية ، عن مسألة مصير الاتحاد السوفييتى ايتما توف وهو من إحدى الجمهوريات الفقيرة فى الجنوب فهو مع بقاء صيغة الاتحاد التى كانت راهنة حتى سنوات حكم جورباتشوف الاولى ، حتى لو فرض هذا الوضع بالقوة المسلحة – وأن الخروج من الاشتراكية أو الخروج عليها لا يعنى الخروج من الاتحاد السوفييتى أو الخروج عليه .

فى حين أن راسبوتين ، وهو ينتمى جغرافيا إلي جمهورية روسيا الاتحادية ، يرى أن روسيا الاتحادية لابد أن تنكفىء على نفسها فى الداخل وتقوى من كيانها ، وتقف صلبة وعملاقة كدولة عظمى ، وهى قادرة على ذلك بمفردها ، ثم يتحد معها بعد ذلك من يشاء ، كونفدرالية اقتصادية أكثر منها سياسية .

يبقى يفتشنكو فله - حتى الآن ورغم كل هذه المتغيرات - وجوده النجومى على الساحة السوفيتية ، رأيته ليلة افتتاح مهرجان موسكو السينمائى الدولى فوجدتنى أمام نجم بكل معانى الكلمة .

ما أن نطقت اسمه حتى ظهرت حالة من التقزز على كل الوجوه ، قالوا : شاعر كل العصور ، لم يفته سوى ستالين لأنه كان طفلا فى زمانه ، وقف مع الجميع فى حياتهم ، ووقف ضدهم بعد رحيلهم من الكريملين سواء بالموت أو الابعاد .

وقف مع خروشوف ، وبعد إبعاده عن السلطة سمى عصره بالزمان النزق وكان يقول عن نفسه فى زمن بريجنيف إنه شاعر بريجنيف ، ومنحه بمد رحيله اسم : الجمود ، وهكذا .

ذهب إلى القاهرة فى الستينات وخطف أبصار الشباب وحلق بها بعيدا وهو يقول شعره عن السد العالى والصداقة المصرية السوفييتية العظيمة الموجهة ضد الامبريالية والصهيونية ، منذ عامين ذهب إلى اسرائيل وفى تل أبيب ، أهدى إلى رئيس الدولة المغتصبة للحق الفلسطينى بلطة لكى يحطم بها رأس كل من يهدد أمن اسرائيل .

وقبل الانقلاب الأخير بفترة أسس اتحاد كتاب مستقل عن الاتحاد الاصلى ، أعلن أنه سيخصص للكتاب المنشقين عن الاتحاد السوفييتى فى الفترة الماضية والذين تم شطبهم من عضوية اتحاد الكتاب السوفييتى فى ذلك الوقت ، مع أنه سبق أن وصفهم بالخيانة العظمى من قبل .

أخر تقاليعه أنه تحول إلى الاخراج السينمائى ، وأخرج فعلا فيلما عنوانه « مراسم دفن ستالين » وهو يحكى تجربة اليهود مع ستالين من خلال رؤية طفل لما يجرى أمامه .

سألت : وهل يريد نوبل هو الآخر ؟ ، إنها تمنح لشعراء فى حالات شديدة الندرة ، قالوا يفتشنكو حالة ، أنه فقط يسعى للبقاء فى دائرة الضوء مهما كان الثمن ، لقد نسى يفتشنكو أن صدقه ، كان كلمة السر الأولى والأخيرة ، والآن مطلوب منه أن يكون صادقا ، وبعد الصدق مع النفس ومع الغير يكتب الشعر بعد ذلك .

عن نفسى عندما رأيته فى المرتين اللتين رأيته فيهما كان يرتدى ملابس حمراء ، حتى الحذاء أحمر ، واحترت لماذا اللون الأحمر بالذات ، مع أنه يغرب من سماء البلدان الآن ، ربما كانت ملابسه قديمة ولفت نظرى فى المرتين خاتما من الذهب أكبر من أى خاتم فى يد أكبر تاجر فى الاتحاد السوفييتى الآن .

قلت فى نهاية السهرة تعليقا على كل ما سمعته ، المبدع موقف ، ذلك هو الاساس ، والباقى بعد ذلك تفصيلات لا تقدم ولا تؤخر ، قلت أيضا : إن المثقف هو الإنسان الذى يتعدى تفكيره دائرة ذاته ، إلى الاهتمام بالآخرين ، ولا يتخذ موقفا ما من أجل نفسه ، ولكن من أجل الآخرين ولا يضار من أجل ذاته ، ولكن من أجل الآخرين ذلك أبسط تعريف للمثقف .

المهم هل ندرك نحن المثقفين فى الوطن العربى ، هذه الحكايات عن تلك العلاقة الشائكة والمعقدة بين المثقف والامير ، وكيف تبدأ ، وإلى أى مدى تنمو ، وما هو الافق الذى يمكن أن تمتد إليه ؟ .

والاهم من كل هذا مدى تأثيرها على الكاتب كإنسان وموقف ، وبالتالى مدى التأثير على إبداعاته الادبية وتوجهاتها الاساسية وموقفها من الصراع الدائر .

آه لو كنا ندرك ، وأه لو يأتى هذا الادراك قبل فوات الأوان . ؟ !

المحتـــــوى

خيرها فى غيرها

مؤلفـات
يوسـف القعـيد

١ – الحداد : رواية . طبعة أولى . منشورات كتاب الطليعة ١٩٦٩

طبعة ثانية : روايات الهلال ١٩٨٣ .

طبعة ثالثة : هيئة الكتـاب ١٩٨٧ .

٢ – أخبار عزبة المنيسى : رواية . طبعة اولى . هيئة الكتاب ١٩٧١ .

طبعة ثانية : روايات الهلال . مارس ١٩٨٥ .

طبعة ثالثة : دار سـعاد الصبـاح ١٩٩٢ .

٣ – أيام الجفاف : قصة طويلة . طبعة أولى . مكتبة مدبولى القاهرة .

دار العودة – بيروت ١٩٧٣ .

٤ – البيات الشتوى : رواية . طبعة أولى . روايات الهلال . ١٩٧٤ .

طبعة ثانية ، مكتبة مدبولى ١٩٨٦ .

٥ – فى الاسبوع سبعة أيام : قصة طويلة ، طبعة أولى .

هيئة الكتاب ، اكتوبر ١٩٧٥ .

٦ – طرح البحر : قصص قصيرة ، طبعة أولى روايات الهلال . ١٩٧٦ .

طبعة ثانية . هيئة الكتاب ١٩٩٠ .

٧ – يحدث فى مصر الآن : رواية . طبعة أولى . (على نفقة المؤلف) ١٩٧٧ .

طبعة رابعة . دار المستقبل العربى ١٩٨٦ .

ترجمت إلى الروسية والعبرية .

٨ - الحرب فى بر مصر : رواية . طبعة أولى : دار ابن رشد ، بيروت ١٩٧٨ .

طبعة خامسة ، مكتبة مدبولى ١٩٩١ .

ترجمت إلى الروسية والاوكرانية والانجليزية والفرنسية والهولندية والالمانية والعبرية .

٩ - حكايات الزمن الجريح : قصص قصيرة . طبعة أولى . وزارة الاعلام والثقافة - العراق ١٩٨٠. طبعة ثانية ، دار الثقافة الجديدة ١٩٨٢ . طبعة ثالثة . هيئة الكتاب ١٩٩١ .

١٠ - تجفيف الدموع : قصص قصيرة . طبعة أولى . هيئة الكتاب ١٩٨١ .

طبعة ثانية هيئة الكتاب ١٩٩١ .

١١ - شكاوى المصرى الفصيح : ثلاثية .

الجزء الأول : نوم الاغنياء . طبعة أولى . دار الموقف العربى ١٩٨١ .

طبعة ثانية : دار المسيرة - بيروت ١٩٨٢ .

طبعة ثالثة ، دار الشروق ١٩٨٩ .

١٢ - الجزء الثانى : المزاد ، طبعة أولى ١٩٨٣ . دار المستقبل العربى .

طبعة ثانية ، دار الشروق ١٩٨٩ .

١٣ - الجزء الثالث : أرق الفقراء . طبعة أولى دار المستقبل العربى ١٩٨٥ .

طبعة ثانية دار الشروق ١٩٨٩ .

١٤ - قصص من بلاد الفقراء : قصص قصيرة ، طبعة أولى ، روايات الهلال .

١٩٨٣ ، طبعة ثانية هيئة الكتاب ١٩٩١ .

١٥ – من يذكر مصر الأخرى ؟ قصص ، طبعة أولى وزارة الثقافة .سوريا ١٩٨٤ .

١٦ – من يخاف كمب ديفيد ؟ : قصة طويلة . اتحاد الكتاب العرب – دمشق .

طبعة أولى ١٩٨٥ .

ترجمت إلى الروسية .

١٧ – الضحك لم يعد ممكنا : قصص قصيرة . الطبعة الأولى . مختارات

فصول . هيئة الكتاب ، يناير ١٩٨٧ .

الطبعة الثانية ، هيئة الكتاب ١٩٩١ .

١٨ – القلوب البيضاء : رواية . طبعة أولى ؛ دار الشروق ١٩٨٧ .

طبعة ثانية . دار الشئون الثقافية العامة . بغداد ١٩٨٩ .

١٩ – بلد المحبوب : رواية . طبعة أولى . دار الشروق عمان . الاردن . ١٩٨٧ .

طبعة ثانية .. دار سعاد الصباح. القاهرة والكويت١٩٩١ .

٢٠ – وجع البعاد . رواية . طبعة أولى . روايات الهلال . ١٩٨٧ .

٢١ – أصوات الصمت . حوارات أدبية . طبعة أولى ، مكتبة مدبولى ١٩٩١ .

٢٢ – مرافعة البلبل فى القفص : قصة قصيرة . طبعة أولى

روايات الهلال . ١٩٩١ .

٢٣ – من أوراق النيل : يوميات . طبعة أولى . درا سعاد الصباح . القاهرة

والكويت ١٩٩٢ .

دار سعاد الصباح

للنشر والتوزيع

هى مؤسسة ثقافية عربية مسجلة بدولة الكويت وجمهورية مصر العربية وتهدف إلى نشر ما هو جدير بالنشر من روائع التراث العربى والثقافة العربية المعاصرة والتجارب الابداعية للشباب العربى من المحيط إلى الخليج وكذا ترجمة ونشر روائع الثقافات الأخرى حتى تكون فى متناول أبناء الأمة .. فهذه الدار هى حلقة وصل بين التراث والمعاصرة وبين كبار المبدعين وشبابهم وهى نافذة للعرب على العالم ونافذة للعالم على الأمة العربية وتلتزم الدار فيما تنشره بمعايير تضعها هيئة مستقلة من كبار المفكرين العرب فى مجالات الابداع المختلفة .